المتحف الفلسطيني
the palestinian museum
جمعية غير حكومية Non-Governmental Association

٠٢٦١.٠٣.٠٠٧٩

خليل السكاكيني اللغوي"، لعصام محمد السنطي، ١٩٦٧"

خليل السكاكيني "هذه الوثيقة هي كتاب عصام محمد الشنطي المعنون بـ
في جامعة الدول العربية اللغوي" الصادر عن معهد البحوث والدراسات العربية
وتقديم اسحاق موسى عام ١٩٦٧، وفيه تصدير بقلم محمد خلف الله أحمد،
اللغة والنحو الحسيني، كما يتناول بالتحليل مساهمات السكاكيني في
والأصوات والحروف والكتابة.

73

خليل السكاكيني
اللغوي

معهد البحوث والدراسات العربية

رسائل وبحوث

خليل السكاكيني اللغوي

بقلم
عصام محمد الشنطي
[قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٦٧

[الطبعة الأولى]

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

للأستاذ محمد خلف الله أحمد

يسعد معهد البحوث والدراسات العربية أن يفتتح بهذا البحث مرحلة جديدة فى حياته العلمية وفى جهوده لخدمة العروبة وثقافتها ووحدتها الفكرية ، فقد جرى العمل منذ إنشاء المعهد على نشر بحوث أساتذته ومحاضريه وبعض الرسائل الممتازة التى يقدمها خريجوه لدرجة الماجستير. ولكن مؤلف البحث الحاضر واحد من الدارسين فى قسم الأدب واللغة بالمعهد لا يزال فى مرحلة الطلب والإعداد للدبلوم ، وقد التحق بالمعهد فى العام الماضى ضمن أول مجموعة من الدارسين الذين يمنحهم المعهد منحة مالية شهرية تهيئ لهم أسباب التفرغ لدراستهم وتعينهم على مشاركة الأساتذة فى البحث والإنتاج العلمى ، حتى تتحول بيئة المعهد تدريجاً من أساتذة وطلاب وامتحان وشهادة إلى بيئة من الباحثين ، يتعاون شبابهم وشيوخهم فى البحث ، وتسفر جهودهم المتكاملة فى كل عام عن جديد من المعرفة فى نواحى الحياة العربية المعاصرة ، يخدم أهدافها ويجلو قضاياها ويدحض أباطيل أعدائها ويهدى إلى وسائل الإصلاح والنهوض بأمة العرب .

وقد كان من الطبيعى أن تستهل هذه المرحلة الجديدة من بحوث المعهد بدراسة عن عالم لغوى مجدد خدم اللغة العربية مدرساً ومفتشاً ومؤلفاً وعضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة . لقد كان المرحوم خليل السكاكينى مثالا فى اعتزازه بعروبته وقوميته ، وقد عرف فيه معاصروه باحثاً جرىء

الفكر ، واسع الأفق ، مستقل النظر ، ينقد ويوازن ويضع إصبعه على المشكلات ، ويتصدى لرسم الحلول لها ، ويعتمد على التجريب فى منهجه التربوى .

وكان طبيعياً كذلك أن ينتدب لهذا البحث مواطنه الباحث عصام محمد الشنطى الذى لمحنا فيه — نحن أساتذة القسم — منذ التحاقه بالمعهد جداً فى الدرس ونضجاً فى التفكير وإقداماً على معالجة القضايا الأدبية واللغوية ، واستجابة للروح الجديد فى المعهد ، روح البحث والنقاش والتعاون العلمى . وقد خصه الأستاذ الدكتور إسحق موسى الحسينى — رئيس القسم — بنصيب وافر من عنايته وتوجيهه ، فكان من ثمرة ذلك — إلى جانب نجاحه فى فروع دراسته — هذا البحث الجاد الذى نفتتح به نشر بحوث الدارسين لتكون — إلى جانب بحوث الأساتذة ورسائل المتخرجين الممتازين فى الماجستير — إضافة علمية جديدة يعتز بها معهد جامعة الدول العربية ، ويشتد بها ساعده فى ميدان الكفاح الفكرى العربى .

والمعهد إذ يستبشر بهذه الخطوة يأمل أن يحذو الدارسون فيه حذو زميلهم الشنطى فيوجهوا كثيرا من جهدهم إلى دراسة بيئاتهم العربية التى نشأوا فيها وتلمذوا على أعلامها واحتكوا عن قرب بمشكلاتها وقضاياها لتتألف من تلك الدراسات البيئية صورة متكاملة للعروبة فى وحدتها وتشابك مصالحها وتماسك بنيانها . وهذه ناحية حرص عليها المعهد منذ إنشائه وشهدت بها دراسات أساتذته التى بلغ المنشور منها فى ثلاث عشرة سنة مائتين وثمانين كتابا كل منها يكشف عن جديد لم تسبق دراسته من حياة الأقطار العربية فى لغتها وأدبها وتاريخها وجغرافيتها واقتصادها وتشريعها ، أو يعالج قضية من قضاياها الكبرى التى تشغل جهودها فى المجالين القومى والدولى .

وبعد ، فإذا كان الزميل الشنطى قد حاول فى بحثه كما يقول أن يلم الخيوط الثقافية التى تكوّن منها نسيج السكاكينى فى اللغة وأن يعرض جملة آرائه فى اللغة عامة ، وفى النحو والصرف ، والأصوات والحروف ورسم الكتابة ، فإن له فى ثنايا البحث وقفات فاحصة لم يحجم فيها عن أن يناقش عالم بلده فى آرائه التى اتسم الكثير منها بالجرأة العقلية . ولست أشك فى أن الشنطى سيتابع بحث هذه القضايا ، وسيتم ما بدأه من إعادة نقاشها فى ضوء الأشواط التى قطعتها مجامعنا اللغوية ودراساتنا الجامعية فى تطوير اللغة العربية وتنميتها وتأهيلها للوفاء بالتعبير عن مطالب النهضة والحياة والكفاح والآمال المشتركة فى عالمنا العربى الجديد .

إن لنا فى زملائنا دارسى المعهد وباحثيه من مختلف أقطار العروبة آمالا كبيرة نمنيناها على الله ، والله بتحقيقها كفيل .

محمد خلف الله أحمد

مدير المعهد وعضو مجمع اللغة العربية

تقـــديم

للدكتور إسمى مرسى الحسينى

أسعدت بقراءة هذا البحث الذى كتبه السيد عصام محمد الشنطى حين كنت مشرفاً على قسم الدراسات الأدبية واللغوية . وحين تولى الأستاذ محمد خلف الله أحمد رياسة القسم ، علاوة على إدارة المعهد ، انتقل إليه حق كتابة التصدير ، بحكم الأصل والفرع مجتمعين . ولكن أخلاقه العالية أبت إلا أن أشارك فى الكتابة فى هذا المبحث ، بحكم العلاقة التاريخية .

أعجبنى فى البحث ثلاثة أمور :

الأول : تحديد الموضوع واقتطاعه من موضوع واسع كان يمكن أن يكون « أثر خليل السكاكينى فى الحياة الأدبية المعاصرة » أو « السكاكينى الأديب المجدد » أو ما أشبه ذلك من موضوعات عامة لا تمكن الباحث من التعمق المطلوب فى البحث . والسكاكينى كان أديباً موهوباً متعدد الجوانب . كان ناثراً ، ولغوياً ، ومعلماً ، وخطيباً ، وناقداً ، وشاعراً ، مبرزاً ومجدداً فى جميع هذه المجالات .

والثانى : اطلاع الباحث على جميع ما نشر للسكاكينى من كتب ومقالات ، وما كتب عنه من دراسات . ولم يفته إلا كتاب واحد للسكاكينى هو « الاحتذاء بحذاء الغير » الذى كان باكورة تآليفه والذى لم يعثر له على أثر . قرأ الباحث جميع هذه الآثار قراءة فاحص متدبّر ، كيلا تفوته نقطة واحدة متصلة بصلب الموضوع . ولذا جاء البحث واسعا فى عمق ، ومحيطا بجميع القضايا اللغوية فى دقة .

والثالث : كسره البحث على أبواب ثلاثة ، واستخلاص مايتصل بكل باب من مواد مبعثرة فى الكتب والمجلات . وعملية الفرز هذه تدل على جدّ واستقصاء وحسن إدراك .

*
* *

وكنت أود لو أن الباحث تنبه إلى أمرين :

الأول : أن السكاكينى كتب معظم أبحاثه اللغوية فى الربع الأول من القرن العشرين ، وبعضها فى النصف الثانى من القرن ، حين كانت الدراسة اللغوية يغلب عليها الجانب التاريخى . فعلماء اللغة الغربيون الذين تأثر بهم السكاكينى تأثراً واضحاً كانوا يعنون بالفيلولوجيا القائمة على تاريخ اللغات وموازنة بعضها ببعض . ثم ضعف هذا الاتجاه حين ظهر للباحثين عسره وعقمه ، وحل محله اتجاه آخر هو السمنتقية Sementics ، ووصف اللغات وصفا موضوعيا ، ودراسة الأصوات . ذلك أنه كلما ضرب الباحث فى مجاهل التاريخ أوغل فى الحدس والظن ، وبعد عن الوصول إلى حقائق ثابتة كامنة فى مادة اللغة نفسها كما وصلت إلينا كتابةً ونطقاً . ولذا نستطيع أن نقول اليوم — بعد هـــذا التطور — إن بعض المباحث التى طرقها السكاكينى حدسية ظنية يعوزها الدليل المادى . ولا يعذره ذلك فى شىء ، فالسكاكينى المبدع النير الذهن الفاحص لا يفقد مكانته ولا ينزل عنها قيد انملة . ولكنها طبيعة الحياة التى تشد المرء إلى قضايا عصره ، فيعالجها بمنطق الزمن ومفاهيمه وأسلوبه .

مثال ذلك تعليله وجود الأصوات الفخيمة والأصوات الحلقية فى اللغة العربية بالبـــداوة والعيش فى الهواء الطلق ، وتقريره أنه كان فى بعض اللغات الأوربية مثل هذه الأصوات ، ولكنها لم تلبث أن ماتت . وردّه تطور هذه الأصوات أو اختفاءها إلى الدور الحضرى الذى دخل فيه

العرب ، ولا يثبت هذا الرأى مالم يثبت أن الشعوب التى تسكن فى بلاد متشابهة ، من حيث المناخ والتربة ، قد وجدت فيها مثل هذه الأصوات الفخيمة والحلقية . وفقدان العبرانيين لبعض هذه الأصوات يرجع إلى مخالطتهم الشعوب الأوربية عدة قرون حتى فقدت آلة النطق خصائصها القديمة .

ومثال آخر ماذهب إليه من أن العرب ألغوا الحركات القصيرة لأنها فى اعتبارهم مفهومة لاحاجة إلى كتابتها . وليس بشىء . فالعلة هى أنهم أخذوا حروفهم من الآراميين ولم يكن عندهم رموز للحركات .

ومثال ثالث تقريره أنه لم يكن فى الاسم — فى الأصل — إلا حالتان : عمدة وفضلة ، أو رفع ونصب ، وأن الحالة الثالثة ، حالة الخفض ، طارئة أو أنها أثر من آثار التشويش الإعرابى ، ، لأنه لاحاجة إلى حالة ثالثة إعرابية ، فضلا عن أن الخفض ثقيل مستشنع . يرفع الإسم لأنه مهم أو قوى ، وينصب لأنه ضعيف أو كثير الدوران على اللسان ، — مطالعات فى اللغة الأدب ص ١٦ — وهذا رأى يعوزه الدليل ، علاوة على أنه نظر تاريخى عقيم .

وقس على ذلك رأيه فى تعليل تقديم الصفة على الموصوف ، وأن المرحلة الإعرابية هى آخر مراحل التطور اللغوى ، مع أن التحليلية جاءت بعدها كما هو ظاهر فى اللغة الإنجليزية ، ومذهبه فى أن الحروف كانت أصلا منفصلة ثم اتصلت ، وأن آنى تطور من أعطى ، وما إلى ذلك من نظرات .

والأمر الثانى الذى وددت التنبه إليه هو أن السكاكينى كتب معظم ما كتب من أبحاث لغوية فى إبان اشتداد المعركة بين أنصار القديم وأنصار الجديد ، التى خاض هو غمارها ، مخالفا الأمير شكيب ارسلان وإسعاف النشاشيبى

واضرابهما من المحافظين ، ومشاركا عددا من أقرانه مثل الدكتور طه حسين ، والدكتور منصور فهمى ، والدكتور محمد حسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، وسلامة موسى .

هذه المعركة — التى لما تؤرخ — دفعت بعض أنصار الجديد إلى شىء من الغلو فى التجديد ، والإسراف فى مخالفة القديم والتشكيك فى قيمته ، والبحث عن كل جديد هنا وهناك .

مثال ذلك دعوته إلى إلغاء تعليم النحو ، لأنه لافائدة له فى نفسه بل فى تجميل المنطق والتحرز من الخطأ . وحدث أن كنت مقرر اللجنة — فى المؤتمر الثقافى الأول الذى عقد فى بيت مرى سنة ١٩٤٧ — التى قدّم إليها السكاكينى رأيه هذا ، فلم يستجب إليه أحد من الأعضاء . وكان الرأى السائد أن النحو بحاجة إلى تيسير لا إلى إلغاء . وهذا ما تم فعلا حين أنشئت لجنة فى مصر للنظر فى تيسير النحو ، قدّم إليها السكاكينى « حاشية على تقرير لجنة النظر فى تيسير قواعد الصرف والنحو والبلاغة » . ومثل هذه الدعوة يجوز أن تروج بين متكلمى الإنجليزية بحكم لغتهم التحليلية . أما العربية فلغة معربة ولا مفر من درس نحوها على أن يكون ميسراً . وقد قاس السكاكينى العربية بالإنجليزية ، وأشار إلى تجربة فى أمريكا أثبتت أن الطلاب الذين يتعلمون اللغة بدون قواعد أصح ملكة من الطلاب الذين يتعلمونها بقواعد . وهذا قياس مع الفارق — كما يقال .

وبعد ، يطول القول بضرب الأمثلة . ولا بد من التوكيد أنه لايصح القول إن السكاكينى فى أبحاثه وضع النتائج قبل المقدمات ، أى أنه أراد أن يثبت قضايا دون بينة . لم يكن السكاكينى من أولئك النفر الذين يطلق عليه الإفرنج نعت apologetic — وهم الذين يتكلفون الأعذار للدفاع عن حضارتهم أو آثارهم — لقد كان يردف كل رأى بحجج وشواهد اقتنع هو بصحتها .

و لاينقص من قدر السكاكينى القول إن الأبحاث التى نشرها فى مجلة مجمع اللغة العربية كانت فى جوهرها إعادة لما نشره فى كتابه « مطالعات فى اللغة والأدب » — وازن مبحث النحو فى مجلة المجمع ٣٢٥/٧ بمطالعات ص ٥٧ ، والترادف فى اللغة فى مجلة المجمع ١٢٤/٨ بنتفة من الشواهد على المترادفات فى مطالعات ص ١٥٤ — أما بحث التشويش فى اللغة العربية فى مجلة المجمع ١١٧/٨ فلا أصل له فى مطالعات .

وبعد ، فإن خليل السكاكينى علم من أعلام النهضة الحديثة أفاد أمته وأعطاها الكثير من وجدانه وعقله ودفعها إلى التقدم . وهو خليق بالدرس من جميع جوانبه التى عددناها من قبل . وهذا البحث الموفق خطوة نحو الدراسة الجادة التى نرجو أن تكتمل على يد السيد الشنطى أو أحد زملائه من طلاب المعهد .

إسحق موسى الحسينى

مقـــدمة

لقد درج معهد البحوث والدراسات العربية ، منذ إنشائه عام ١٩٥٣ ، على إلقاء المحاضرات فى شتى الميادين الموصولة بالأهداف العربية . وليس ينكر ما قدمه المعهد فى هذا المجال من فوائد جمة ، على رأسها هذه الحصيلة الكبيرة من مطبوعاته القيمة التى وضعها نخبة من الأساتذة ، فسدّت فراغاً فى المكتبة العربية . فضلا عما أسداه المعهد — على مدى هذه السنين — من تخريج خبراء فى مختلف فروع المعارف العربيـــة ، باتجاهاتها الحديثة ومشكلاتها المعاصرة .

ومنذ الموسم الدراسى الأخير ، أريد لهذا المعهد أن يغير من نمطه ، وأن يتطور إلى مرحلة أرقى ، ويفسح للدارسين المجال للبحث والتنقيب ، ليقدّموا نتائج جهودهم بحوثاً تُنشر . وبهذا يكمل العمل وينسجم بين الأساتذة والدارسين .

وفى ظل هذا العهد الجديد ، أقدم باكورة هذه البحوث ، وثمرتها الأولى ، راجياً أن يلحقه بحوث أكثر نضجاً .

كما أزجى خالص شكرى للأستاذ محمد خلف الله أحمد - مدير المعهد - ، والدكتور إسحق موسى الحسينى - رئيس القسم - على ما أسديا إلى من عون وتشجيع .

وبالله التوفيق .

القاهرة — يوليو (تموز) ١٩٦٦ عصام محمد الشنطى

تمهيد

امتدت حياة السكاكيني — أديب فلسطين المجدد دون منازع — ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، كانت في أواخر القرن الماضي ، والنصف الأول من هذا القرن[1] . وامتازت حياته عبر هذه السنين الطويلة ، باتجاهات كثيرة ، وجوانب مختلفة . فتراه الإنسان المثالي ، والمربي الكبير ، والأديب المجدد ، والناقد النافذ البصيرة ، واللغوي المبتكر ، والمفكر الحر في السياسة ، والفلسفة ، والاجتماع . والحق أن كل جانب من هذه الجوانب خليق أن يكون ميدانا فسيحا للدارس المتخصص ، تميزها بالدسامة وسعة الشمول .

تخرج السكاكيني في مدرسة (صهيون) الانكليزية ، في بيت المقدس ، التي كانت تدعى (مدرسة الشبان) . وهي من أشهر مدارس الإرساليات الأجنبية وأرقاها آنذاك[2] . وكانت هذه المدرسة تعلم اللغة العربية النصرانية ، لغة التوراة والإنجيل ، لا لغة القرآن والأدب العربي ، حتى جاءها نخلة زريق ، أحد رجال النهضة الأدبية الحديثة في فلسطين وأستاذ العربية في مطلع هذا القرن ، فأتيح للسكاكيني أن يتتلمذ عليه . ويبدو أن أثر هذا الأستاذ

---

(١) تجد ترجمة له ، وآثاره ، ومراجع عنه ، عند : — خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج ٢ : ٣٦٩ ؛ وملحق في ج ١٠ : ٨٥ . وعند : — يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ : ٤٥٨ - ٤٦٠ . وعند : — عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، ج ٤ : ١٢٥/١٢٦ .

(٢) دكتور إسحق موسى الحسيني : المدخل إلى الأدب العربي المعاصر ، ص ٢٥ .

كان قوياً فى تلميذه ، مما أشبع فيه نهمه للغة وحبه لها [١] .

وسافر إلى الآستانة ، وانكلترا ، والولايات المتحدة الأمريكية . وكان لا يبخل فى زيارة أماكنها الثقافية من متاحف ومعارض ومكتبات ، فأفاد معرفة واسعة . وتعرف فى انكلترا وأمريكا على أساتذة أعلام فى علم اللغات . كما كان يتردد فى نيويورك على جامعة كولومبيا ، يعين فيها أستاذ اللغة العربية على قراءة بعض المخطوطات العربية وتنقيحها [٢] .

وكان قارئاً نهماً ، منذ وقت مبكر . يقرأ الكثير فى مختلف العلوم الإنسانية ، ويهضم الكثير [٣] . وأول كتاب وقع فى يده كتاب «الفارياق» لأحمد فارس الشدياق ، فأعجب به وبأسلوبه . وقرأ الكثير من الفلاسفة ، لكنه تشرب — على الأخص — فلسفة نيتشه (Nietzche) — الفيلسوف الألمانى — وتأثر به ؛ فآمن بالحياة والقوة فى كل مجال . وهام بأبى الطيب المتنبى ، لأنه شاعر القوة والحياة ، حتى دعاه « نيتشه العرب » . وقرأ بجموعتى الدكتور شبلى شميل حول مذهب تشارلز داروِن فى النشوء والارتقاء ، شرحاً ، وتحليلاً ، ودفاعاً عنه ؛ فتأثر بهما تأثراً بالغاً [٤] .

وبهذا نمت استعداداته الفطرية ، وتفتحت مواهبه الفذة ، التى يمكن أن يعزى شىء منها إلى عرق وراثى يمتد إلى جد يونانى . وزالت الغشاوة عن عينيه ، وقابل الحقائق وجهاً لوجه ، وهجر خرافاته ، وانقلب على كل

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ١ : ٩٩ — ١٠٤ .
(٢) المرجع السابق ، ج ١ : ٢٤٠ .
(٣) المرجع السابق ، ج ١ : ٢٨٧ .
(٤) المرجع السابق ، ج ١ : ٤٩ — ٥٣ .

قديم بال ، وتحرر من العادات والعقائد والآداب السخيفة القديمة [١] . وأصبحت حياته كلها سلسلة من الثورات ، بغية الوصول إلى الأحسن فى شتى مجالات الحياة والفكر . ولعل أشهرها فى مجال الأدب واللغة ، ثورته على أدب اللفظ المنمق ، أدب الصنعة والتكلف ، لأنه كان يؤمن بالفكرة ، ويدعو إلى أدب المعنى ، تؤديه لغة مطبوعة مبسورة ، لا تقعر فيها ولا تصنع [٢] . فكان على إعجاب واتصال بالكتاب المجددين المحدثين ، مثل مصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، وطه حسين ، ومحمود عزمى ، وعباس محمود العقاد ، وسلامة موسى ، وأمين الريحانى ، واضرابهم .

على أن صلة السكاكينى باللغة العربية كانت أقدم من ذلك ، فقد كان وامه بها منذ نعومة أظفاره ، فأحبها حباً شديداً ، ووقف نفسه على إحيائها وتعزيزها ، وعرّض حياته للخطر فى سبيلها [٣] . واتصل باللغة العربية اتصالاً مباشراً ، فدارس مهنة التعليم زمناً طويلاً ، فى فلسطين ومصر . وكان مفتشاً للغة العربية فى مدارس فلسطين الحكومية ، فتسنى له أن يحتك بالطلاب على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم . وكان يؤمن بالمدرسة على نظم مبتكرة ، وبأسلوب الحوار والمناظرة ، لتكون أداة للنهضة الحديثة والاصلاح ؛ فأنشأ مدرسة (الدستورية) ، عقب إعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ ؛ وشارك فى تأسيس مدرسة (النهضة الثانوية) فى القدس ، التى بقى يديرها حتى حلول النكبة فى فلسطين .

وامتد تعلقه باللغة العربية وخدمتها إلى وجهة أخرى ، فاتصل بها

(١) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٥٠ / ٥١ .
(٢) دكتور إسحق موسى الحسينى : مقدمة (يوميات خليل السكاكينى) ، ص ٢ .
(٣) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٩٩ .

اتصال الباحث المدقق . وقرأ ما وصل إليه من مظان تراث العرب وأمهات كتبهم فى مختلف علوم اللغة وآدابها ، مما غصت بها مكتبته[1] ، فاستوعبها وتثقف بها ثقافة واسعة . واطلع على ما كتبه من قبله طلائع علماء اللغة المحدثون، أمثال أحمد فارس الشدياق، والشيخ إبراهيم اليازجى، وجورجى زيدان ، وروحى الخالدى المقدسى، وجبر ضومط اللبنانى، وبندلى الجوزى المقدسى ، وانستاس الكرملى ، وأفاد منهم فوائد كبيرة . ولو صح ما قيل إن نخلة زريق — أستاذ السكاكينى — كان تلميذاً للشيخ إبراهيم اليازجى، لأمكن عد السكاكينى امتدادا لاتجاهات اليازجى فى اللغة .

وصحب السكاكينى من كبار رواد علماء اللغات فى العصر الحديث ، أستاذه وصديقه بندلى الجوزى الذى كان فى روسيا . وكان السكاكينى يلزمه فى ليله ونهاره إذا ما جاء إلى القدس زائرا . وكم ترقب عودة بندلى إلى فلسطين، ليقضى بقية العمر معه ، لكنه توفى فى روسيا ولم يعد[2] . وسجل لنا السكاكينى فى غير موضع من « يومياته » أحاديث كثيرة عن اللغة، واهتماما بالغا بأسرارها ، ودقائقها ، وقواعـــدها ، ومزاياها ، مع الأنداد والأصحاب[3] ؛ وكان هذه اللغة أخذت عليه لبه . وكان يجد لذة كبيرة فى درس اللغات بمزيجها من المعقول وغير المعقول ، من القياس والشاذ ، مستشهداً بقول أحد علماء اللغة : « إن اللغة مثل صديق ، هفواته تعزوه لدينا وتحببه إلينا[4] » .

وراح يبحث فى اللغة العربية على ضوء علم اللغات الحديث Linguistics ،

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٠ .
(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ١٦٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٥٠ .
(٤) خليل السكاكينى : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٨ : ٣٢٠ .

محللاً وناظراً فى نشأتها ، وتطورها ، وتاريخ ألفاظها ، وفى فلسفتها ، وفقهها ، مقابلا إياها باللغات الأخرى . وأعانه على ذلك درايته باللغة الإنكليزية ، ومعرفته الأقل باللغة الفرنسية[1] ، وغيرها من اللغات . وإذا جاز لنا أن نشترط فى المجتهد اللغوى شروطاً مرسومة ، أسوة بما يشترط فى المجتهد الفقهى ، فإنه يحق لنا أن نبيح للسكاكينى أن يجتهد فى اللغة ما شاء له الاجتهاد ؛ ذلك لأنه تسلح فى معركته هذه بجميع الأسلحة والمعدات ، ودخلها آمناً مطمئناً ، بمزيج من الثقافة العربية الأصيلة ، والثقافة الغربية الحديثة ، وبحس لغوى مرهف .

وحاضر السكاكينى فى كلية الآداب بالجامعة المصرية — فى : « أدلة البيان » ، و « الأفعال » ، و « الحروف الهجائية » — سلسلة محاضرات لغوية، اتسمت بالإحاطة والعمق والابتكار[2] . كما حاضر فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، غير مرة ، فى أصول اللغة العربية ، ومشكلاتها ، وطرق تدريس فروعها المختلفة[3] . وأخذ يؤلف ويكتب المباحث اللغوية الرصينة ، وينشرها فى كتب ، أو فى مجلات وجرائد أدبية ، كالمقتطف ، والهلال ، والسياسة ، والشورى ، والجامعة ، والسفور ، والأهرام . وردّ على تقرير لجنة تيسير قواعد الصرف والنحو والبلاغة فى مصر ، رداً فيه من التفاصيل ما دل على أصالة فى الفكر ، وعلو فى النقد[4] . وشارك برأيه فى مسألة « تيسير الكتابة العربية » فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة[5] .

(١) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٧٢ ، ١٥٢ .
(٢) ألقيت فى ديسمبر ١٩٢٠ — فبراير ١٩٢١ . تجدها فى : المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٥ — ٤٨ .
(٣) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٢٣٤ ، ٢٥٠ .
(٤) طبع هذا الرد فى القدس سنة ١٩٣٨ .
(٥) طبع هذا الرأى فى القدس سنة ١٩٤٦ . تجده فى : المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٢٢٣ — ٢٣١ .

واشترك فى المؤتمر الثقافى العربى الأول ، الذى عقد فى بيت مرى بلبنان صيف عام ١٩٤٧ ، فوقف فى لجنة قواعد اللغة العربية موقفاً متطرفاً بمفرده ، فى شجاعة وجرأة ، حيث اقترح إلغاء القواعد ، وقد وفى الموضوع حقه ، ولكن على غير جدوى . وكانت محاضراته وبحوثه جميعاً تقابل بالثناء والإعجاب .

وذاع صيته واشتهر بهذا اللون من الدراسة ، إلى أن دخل مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فى مطلع عام ١٩٤٨ ، عضواً عاملا مع الخالدين[1] ، بديلا لصديقه الراحل مصطفى عبد الرازق ؛ فمضى يمد المجمع ببحوثه اللغوية النفيسة[2] ، وبنشاطه الدائب فى لجنة الأصول وتيسير الإملاء[3] . وقلما كان يخلو مؤتمر للمجمع من بحث له ، وهو ابن السبعين عاماً . وكان يأمل أن يمتد به الأجل حتى يقدم جهداً أكبر فى الدراسات اللغوية وغيرها[4] .

---

(١) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ .

(٢) بحوثه إلى المجمع فى : « النحو » (ألقى فى ديسمبر ١٩٤٨) ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٧ : ٣٢٥ — ٣٢٩ ، و « التشويش » (ألقى فى يناير ١٩٥٠) ، مجلة المجمع ، ج ٨ : ١١٧ — ١٢٣ ، و « الترادف » (ألقى فى يناير ١٩٥٠) ، مجلة المجمع ، ج ٨ : ١٢٤ — ١٣٠ ، و « خواطر فى اللغة » — فى القرينة والترتيب والإعراب — (ألقى فى يناير ١٩٥١) ، مجلة المجمع ، ج ٨ : ٣١٤ — ٣٢٠ ، و « خواطر فى اللغة » — فى العدد ، والمرأة فى النحو — (ألقى فى يناير ١٩٥٢) ، مجلة المجمع ، ج ٩ : ٦٦ — ٦٩ .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٨ : ٦٢ ، ٩٦ .

× (٤) تجد أسماء ما نشره من الكتب ، مع سنى نشرها — بالإضافة إلى ما ورد فى مراجع ترجمته — فى : « الكتاب العربى الفلسطينى » ، نشر لجنة الثقافة العربية فى فلسطين ، ص ٥ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ .

وأكثر ما كان يميز السكاكينى غيرته على اللغة العربية ؛ ذلك لأنه كان غيوراً على عروبته ، معتزاً بها[1] . ويبدو هذا واضحاً فى حرصه على العناية باللغة العربية فى مدرستيه ، أكثر مما كان يعنى بها فى مدارس المعهدين التركى والانكليزى ، فى فلسطين . وكان يدرس القرآن للطلبة العرب ، مسلمين ومسيحيين على حد سواء . وجعل نصب عينيه أن تكون العربية لغة التعليم لجميع العلوم فيما أنشأه من مدارس[2] ، دون حرمان الطالب من تعلم لغة أجنبية فى المدارس الإبتدائية ، ما دام لا يلحق هذا ضيماً على اللغة القومية . وكان يحن حنونه حينما يشاهد بنى قومه يتحدثون فى بيوتهم بالانكليزية أو الفرنسية ، أو يكتبون شواهد قبورهم بإحدى هاتين اللغتين ، عاداً ذلك انسلاخاً عن العروبة ولغتها[3] .

---

(١) دكتور منصور فهمى : مقدمة (يوميات خليل السكاكينى) ، ص ٤ .

× (٢) دكتور منصور فهمى : مجلة اللغة العربية ، ج ٧ : ٢٩٥ .

(٣) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٢٧٠ .

فى اللغـــة

لايعد السكاكينى اللغة مجرد معرفة لشوارد ألفاظها ، وتراكيبها ، وأحكامها، وتاريخها . فقد نجد من المستشرقين من يملك ناصية اللغة العربية ، ويفوق علماءها معرفة بها ، لكنه لاينزل من اللغة منزلة أهلها منها . إنما اللغة — فى اعتقاد السكاكينى — « حياة ، وتقاليد ، وعقائد ، وأخـــلاق ، ومقدسات » . وصاحب اللغة من يعنى بها لنفسها ، ويكتب ، ويخطب ، ويتكلم بها ، ويحاول إعلاء شأنها ، ويفكر على أساليبها ، وينظر إليها نظرة افتخار وتقديس ؛ فكل كلمة فى لغته أجل من كل كلمة ترادفها فى لغة أخرى[1] . وواضح هنا أنه يربط بين اللغة والاعتزاز بالقومية ؛ فالعناية بها عناية بالعاطفة الوطنية[2] ؛ ذلك ان اللغـــة من المقومات الأساسية لهذه القومية ، لأنها تؤدى إلى التجانس ، وهى توحيد للعقل والفكر والثقافة معاً .

وطبيعى ، والأمر كذلك ، أن يكون السكاكينى على حرب وجفوة مع اللهجات العامية ، يحارب من يدعو لها ، ويساند كل من يدعو لإحياء اللغة الفصحى المقدسة عنده . وكان يحس أن اللغة الفصحى والعامية فى صراع مستمر ، تتنازعان البقاء . وكم جزع على العربية الفصحى مما كانت تتعرض له من خمول وإهمال ، قبل النهضة الأخيرة ، وقبل أن تستطيع هذه اللغة أن تخرج من كبوتها إلى جديدها ، حين لم تكن لغة التعليم ، وانقطع عهد الناس بها ، وأصبحت غريبة عن الأمة ، مشوشة

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، جـ ٢ : ٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، جـ ١ : ٣١٩ .

الألفاظ والتعبيرات . حتى لو أن داعياً دعا فى ذلك العهـــد إلى استبدال العامية بها ، لتصبح لغة الكتابة ، لما وجد من ينكر عليه ذلك[1] .

ولم يكن يقصد فى دعواه للغة الفصحى إلا الفصحى الحديثة ، التى تلائم هذا العصر ، وتنبع من ظروفه ومقوماته ، حتى تهزم العامية وتنتصر عليها . كما ابتغى أن تكون اللغة العربية الفصحى المعربة هى لغة الحديث أيضاً[2] . ولم يخطر بباله أن يضع لغة للعصر جديدة ، بل كان يعنى أن تكون لغة عربية فصيحة حديثة التطور ، متجددة ، تلائم العصر الحديث بعلومه المستحدثة ، مستمدة أصولها من اللغة القديمة ، على أن تحتفظ بإعرابها ، معارضاً من قال بإلغائه ، واللجوء إلى الوقف والتسكين . وكأنه بهذا أراد الحفاظ على تراث العرب الشعرى القائم على الوزن والموسيقى ، اللذين يعتمدان اعتماداً كلياً على تحريك بعض الحروف . ولعل أكبر دليل على أنه لم يكن يرغب فى تفريطه للصالح من الأصول اللغوية ، أنه راح يتتبع أخطاء الصحف ، على غرار مافعل الشيخ إبراهيم اليازجى من قبله . فنعى السكاكينى عليها شذوذها عن القياس أو السماع فى ألفاظ اللغة وأحكامها ، واستعمالها أساليب وتراكيب لاتدخل فى باب التطور ، بل فى باب الخطأ المحض ، مما لايجوز السكوت عنه . ودعا إلى وجود المحققين الجهابذة ، ليحفظوا على اللغة سلامتها ورونقها ، ويبعدوها عن الفساد . وضرب لهذه الانحرافات اللغوية أمثلة عديدة ، مما يجدر بنا أن نتجافاها ، من مثل : أمكن له ، والصحيح أمكنه ؛ وهل سنفعل كذا ، والصحيح هل نفعل كذا ؛ وحديث مستفاض ، والصحيح حديث مستفيض ، أو مستفاض فيه[3] .

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٦٣ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ : ٢١٤ .
(٣) المرجع السابق ، ج ٢ : ٦٨ — ٧٠ .

واللغة عنده كبيرة الصلة بالحياة ، فهى مرآة الأمة ، وسجل تاريخها ، وصورة لأحوالها . كما أنها كائن حى تنمو وتتطور مع نمو المجتمع ، وتتشكل طوعاً لتصاريف الزمن . وليست هى أداة تعبيرية جامدة . والنشاط اللغوى يتوازى دائماً مع النشاط الاجتماعى . واللغة الحية هى التى تنطبق على روح العصر الذى تحيا فيه ، متفاعلة مع المجتمع الذى تعيش فى كنفه . ولكل زمان لغة ، فالبداوة لها لغتها ، والسجع لغة زمان الحريرى ، والشعر لغة زمان أبى العتاهية[1] . ودعا إلى أن نبعد عن اللغة ماكان يلائم عصر البداوة البعيد عنا ، ولم يعد فى عصرنا ذا بال . وطالب أن نهجر التراكيب التى ورثناها عن الماضى ولم يبق لها مسوغ ، لهجنتها وبعدها عن حياتنا المعاصرة . من مثل : فلان تشد إليه الرحال ، وتضرب إليه أكباد الإبل ؛ وله فيه القدح المعلى[2] .

ورأى السكاكينى ان التطور ناموس عام ، فما من عنصر من عناصر الحياة إلا خاضع له ، رضينا أم أبينا ، ومن لم يؤمن بهذا الناموس فقد جهل كثيراً . وجرى هذا الاعتقاد عنده على اللغة ، فاللغة — أى لغة — ظاهرة اجتماعية ، تنبع من الناس وبين الناس . وهى متطورة فى ألفاظها وأساليبها تطوراً مستمراً ، فى تؤدة وخفاء . وهى خاضعة لهذا الناموس بطريقة حتمية ، ليس من سبيل لإخراجها عن حكمه . وواضح هنا أنه متأثر بنظرية داروِن فى التطور والنشوء والارتقاء ، التى شاعت فى زمنه ، واستقبلها الشباب من أمثاله[3] .

---

(١) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٣٦٩ .
(٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٧٠/٧١ .
(٣) المرجع السابق ، ج ٢ : ١٣١ . ومما يذكر أن العالم اللغوى الأمريكى whitney, william Dwight [١٨٢٧ — ١٨٩٤] وضع مؤلفات هامة فى علم =

وذهب فى نظرية التطور اللغوى إلى أن لكل عصر ـ بل لكل إقليم فى كل عصر ـ لغته وأسلوبه ، وفقاً لمقومات هذا الإقليم وظروفه ، ووفقاً لهذا العصر وطريقته فى الحياة . فالسكاكينى يربط ـ هذه المرة ـ بين اللغة والبيئة بمعناها الشامل ، من خصب وجدب ، واعتدال وانحراف ، وشدة ورخاء ، وما فيها من حيوات روحية ، واجتماعية ، وسياسية . وهذا عنده هو سبب تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات متعددة ، سواء فى اللغة المكتوبة أو المحكية . ولم يفته أن يسجل بعد الشقة بين اللهجات العامية فى الأقاليم العربية ، وبخاصة قبل النهضة الأخيرة ، وقبل انتشار لغة المدرسة ، ولغة الصحافة ، ولغة التمثيل والغناء . وكان السورى يحتاج إلى ترجمان إذا ماجاء مصر زائراً . ويذهب صاحبنا إلى أبعد من ذلك ، فيرى أن اللغة المكتوبة تتطور أيضاً فى إقليم عربى على نحو يختلف عنه فى إقليم عربى آخر . ولولا وحدة الأصل ، واعتبارات أخرى كثيرة تربطنا به ، فلا نخرج عنه إلا رجعنا إليه ، لاتسعت مع الأيام شقة الاختلاف ، وتشققت اللغة العربية إلى لغات عدة . وضرب لهذه الاختلافات الأمثال ، منها أن السوريين يجمعون «ميّل» (بمعنى هوى) على «أميال» ، وفى مصر تجمع على «ميول» ، وكلا الجمعين صحيح . وفى سوريا يستعملون «متى» ، وفى مصر «أمتى» ، وكلا الوزنين صحيح ، وإن كان الأول أشهر . ومن ذلك لفظة «فقط» التى تستعمل فى سوريا ، لكنها هجرت فى مصر ، ودرج على الألسنة بدلا منها لفظة «فحسب» ، فأخذها بعض السوريين عنهم ، إلى غير ذلك من الألفاظ والتعبيرات الكثيرة

= اللغة ، جنح فيها باتباع مذهب داروين فى التطور ، وكذلك فعل علماء غيره مثل «ليل» و «شليخر» . وليس ببعيد أن يكون السكاكينى قد اطلع على هذه الأفكار أو بعضها . أنظر : إبراهيم السامرائى : التطور اللغوى التاريخى ، ص ١٨ ، ٢٢٦ ؛ و The Encyclopedia Americana, V. 29, P. 284.

فى لغة الأدب ، والصحافة ، والعلم ، مما انفرد بها أحد الفريقين دون الآخر[1] .

وبنظرية التطور اللغوى السكاكينية ، أبعد عن اللغة العقم ، والضعف ، والجمود ، إذ كان يكره أن تكون اللغة فى قوالب جامدة يتعلمها الطالب . وذهب إلى أنه ما من شىء قيد اللغة بسلاسل من حديد ، ومنع نموها وازدهارها . غير القواميس اللغوية[2] ؛ وذلك لأنه أولع بالتجديد اللغوى إلى حد بعيد ، ودعا إلى هجر تلك التراكيب والعبارات التى لاكتها الأفواه وملتها الأسماع ، حتى فقدت دلالاتها ، وأصبحت قوالب جامدة ، من ذلك قولهم : «نشد فلان ضالته» ، و «فلان يصيد فى الماء العكر» ، و «تلك حال تنذر بالويل والثبور» ، وعظائم الأمور» . وهـذا الجمود نفسه حال تنذر بتطور اللغة ، هما اللذان حدوا به أن يحكم على اللغة العبرية بالموت والفناء ، لانقطاع عهد الألسنة بها ، منذ زمن بعيد ، ولأنها لغة تخلو من شروط الحياة ، من جمال وسهولة واتساع . وليس من المعقول أن تكون لغة «متوشالح» و «ارفكشاد» هى لغة اليهود فى القرن العشرين[3] .

وليس غريبا أن يود السكاكينى ابعاد اللغة عن الضعف والتحجر ، وعن الفقر والركود ، وهو المتأثر بفلسفة نيتشه وأبى الطيب المتنبى فى القوة ؛ فكما دان بها فى الجسم ، ونشدها فى المنطق والتفكير ، وفى كل مايراه أهلا للحياة والبقاء ، فطبيعى أن ينشدها فى اللغة لأنها أهل للبقاء والازدهار ؛ فكان لاينظر إلى اللغة العربية إلا من خلال فلسفته ، يروقه

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٧٤ — ٧٦ .
(٢) المرجع السابق ، ج ١ : ٢٨ .
(٣) المرجع السابق ، ج ١ : ٢٤٦ .

منها ما اتسم بالقوة ، معتزاً بمتانتها ، حريصاً على سلامتها ، معلناً عن رفعة مكانتها بين اللغات[1] .

وعرف السكاكينى أن لكل لغة خصائص ومزايا جوهرية . فأخذ يتحراها فى لغته منذ وقت مبكر[2] . وغاص فيما يستجلى هذه الخصائص والمزايا ، فرجع بثروة لا تقدر من جدة الملاحظة ودقتها . رأى أن هذه اللغة — بعد مقابلتها بغيرها — من ذوات الرتبة الأولى . لا تجاريها لغة من لغات الدنيا ، فهى لغة عبقرية ، لأنها لغة فخيمة فى حروفها وأصواتها . واضحة صريحة عند النطق بها ، فى حين أن كثيراً من الحروف فى اللغات الأوربية صامتة أو خفية . وفى العربية من الحروف الحلقية ما لا يوجد فى غيرها من اللغات ، وهى تدل على بيئة نشأتها . وثانى هذه الميزات أنها لغة إيجاز لأنها معربة ، وهى أرق اللغات قدرة على الاشتقاق ، غنية فى أفعالها ، وفى حروفها ، وتحتمل الإضمار والتقدير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والإثبات ، أكثر من اللغات الأخرى . كما يظهر الإيجاز فى أمثالها ، وأشعارها ، وخطبها ، وسائر فروع آدابها[3] . وثالث هذه الخصائص أنها لغة شعرية ، لكثرة استعمال المجاز ، والكناية ، والاستعارات ، والإشارات ، والتشبيه ، ولكثرة مترادفاتها ، مما يجعل الشاعر لا يضيق بها ذرعاً ، ولتنويعها الذى يكسب الكلام جمال النغمة ، كما هو واضح فى :

(١) دكتور منصور فهمى : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٧ : ٢٩٤ .

(٢) فى مارس ١٩١٤ انظر يوميات خليل السكاكينى ، ص ٦٨ — ٧١ .

(٣) يمكن أن نردّ هذه الميزة — فى مجملها — إلى الفرّاء [إمام فى النحو واللغة ، توفى ٢٠٧ هـ = (٨٢٢)] ، الذى ذكر من فضل اللغة العربية وخصائصها وأنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد فى غيرها من اللغات » ! انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ : ١٤٩ .

إذا رأيت ليثاً رام لبثاً ∴ هزبراً أغلباً لاقى هزبرا[1]

وهى كثيرة التراكيب الإعرابية . فموقع الكلمة فى الجملة يظهر إما بعلامات الإعراب ، أو بالترتيب ، أو بالقرينة ، على خلاف اللغات الأخرى ، التى تعتمد على الترتيب فحسب وألفاظها متنوعة بين الفخامة والرقة . وهى أطوع اللغات للوزن والقافية ، فما من لفظة إلا وجدت لها أخوات كثيرات من وزنها وقافيتها[2] . وكثير من مفرداتها — بمقابلتها مع مفردات لغات أخرى — أنسب للمعنى ، وأبين للفكر ، وأطوع لإظهار أعمق السائرات ، من مثل كلمة (حق) و (حب) و (مرحباً) . كما أن حركات ألفاظها ، لاسيما الفتح ، يكسبها جمالا ورشاقة وموسيقى . وأضاف إلى هذه الخصائص ما لاحظه من قدم اللغة العربية ، وظنه أنها أول لغة نطق بها إنسان ، مستنبطا ذلك من بعض ألفاظها[3] . وأنها لغة قوة ، مدللا بأمثلة من أساليبها من مثل : لا يشق له غبار ، وجاذبه حبل الفخر ، وتسنم شرفات العز[4] . كما رأى ثراء العربية بألفاظ الحزن والبكاء ، حتى ظن أنها أغنى اللغات فى هذا الباب[5] .

واعتقد السكاكينى بأن اللغة آلة ، لا غاية فى ذاتها ، ولا هدفا . وهى وعاء للفكر ، ووسيلة لتأدية المعانى بسهولة ويسر . فكما أراد للأدب أن يكون متجددا مع روح العصر ومقتضيات الزمن ، وأن يتحدث من

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ١ : ٣٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ : ١٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج ١ : ١٦٧ .

(٤) المرجع السابق ، ج ١ : ١٥٩ .

(٥) المرجع السابق ، ج ١ : ١٩٧ .

الحياة وإليها ، أراد للغة أن تكون وسيلة حية متطورة ، لتصبح لغة العلم الحديث والحياة الجديدة . ولكم دهش من حضارة أوربا المادية وعلومها الحديثة ، وشق عليه أن يجد اللغة العربية عاجزة عن الحركة ، قاصرة ضيقة دون استيعاب هذه العلوم وتمثلها ، وأن يجد معانى جديدة تحتاج إلى ألفاظ تدل عليها ؛ فأراد للعربية أن تسترد نموها المطرد ، وتساير النهضات المتجددة ، وأن تكون على اتساع ممتد ، ورحابة تامة ، قادرة على تأدية مهمتها لطالب العـــلم . وأراد تطويع اللغة لمقتضيات العصر وحاجاته ، فتصبح اللغة حينئذ — بجانب أنها لغة شعرية — لغة العلم فى سائر فروعه. إذ لاسبيل لإحياء اللغة إلا إذا استعملناها فى التعبير عن عاطفة أو فكر . وكأنه أراد للغة العربية أن تكون لغة الحاضر ولغة المستقبل ، كما كانت لغة الماضى . ولم يتردد السكاكينى لحظة واحدة فى إيجاد حل لمواجهة هذه المشكلات ؛ فليس الأمر عنده إلا أن تعود إلى ألفاظ القدماء العلمية والفنية ، وأن نحسن بعثها واستثمارها واستعمالها ، وليس لنا إلا أن نطبع على غرار السابقين ، فنلجأ إلى الارتجال والوضع ، واصطناع الألفاظ الجديدة ، والتوليد بالإشتقاق ، أو المجاز ، أو الكناية ، أو التعريب والصقل ، أو النحت[1] . وقد مر بنا فى غير هذا الموضع إيمان السكاكينى بأن اللغة العربية أرقى اللغات قدرة على الاشتقاق ، فنقل الكلمة فيها من وزن إلى آخر ، يفيد معنى جديداً قد لايؤدى فى لغة أخرى إلا بأكثر من كلمة .

ولم يمنعه حبه للعربية ولا ما رآه فيها من جمال ، وما نشده لها من ازدياد فى الرحابة ، من أن ينظر إليها نظرة إخلاص ، فيرى حاجتها إلى أن تخلق خلقا جديدا يقرّب منالها من طلابها . فليس يغنى اللغةَ جمالها ، أو غناها ،

(١) خليل السكاكينى : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٨ : ١٢٤ .

أو جزالتها ، أو رقتها ، إنما الشأن أن تكون على جانب كبير من السهولة ، لتستكمل حيويتها ، وتصل إلى غاية الغايات فى الدراسات اللغوية الحديثة. وذهب إلى أن تطور اللغات عموما سار — أول الأمر — من قلة الألفاظ إلى كثرتها ، حتى كان يقاس رقى اللغة بكثرة ألفاظها . وفى هذا الدور عنى بوضع المعاجم والقواميس . ولكن لاح له أن اللغات تسير الآن من الكثرة إلى القلة ، وخشى أن يأتى الزمان الذى تنقرض فيه هذه اللغات ويتم التفاهم بين بنى الإنسان بالصمت .

وكان السكاكينى يعدّ من مواطن الصعوبة فى اللغة العربية كثرة ألفاظها المترادفة التى تزخر بها المعاجم . فكلما وجد معانى جديدة تفتقر العربية إلى ألفاظ تدل عليها ، وجد فيها معانى لها أكثر من لفظ واحد ، ربما وصل إلى ألف أو أكثر ، كما قيل فى كلمة سيف . وهذا ما يجعل الدارس يظن أن اللغة العربية هى مجموعة لغات لقبائل متعددة ، لا لغة أمة واحدة ، وهذا الأمر نفسه يجعلها على جانب من الصعوبة عظيم . وحصر منابع الجداول التى مدّت العربية بأنواع المترادفات المختلفة . ومثّل لكل منبع منها بأمثلة جمة ، فوفى الموضوع حقه ، ودل على اطلاع واسع ودراية ذكية . ورأى انه إن وجدت لغات تشكو من قلة ألفاظها ، فإن العربية تشكو من كثرتها ، وذلك لأنها لاتزال فى دور الصيرورة ، ولابد لها أن تستمر فى التطور حتى تراعى النسبة بين اللفظ والمعنى . ولم يرضَ للعربية أن تترك ليتم نضجها فى بطء وخفاء بحكم ناموس التطور وبمرور الزمن فحسب ، جريا على مذهب النشوء والارتقاء وتنازع البقاء ؛ وإنما أراد لعلماء اللغة أن يبذلوا من الجهود حتى يعجلوا فى إنضاجها . ومرد ذلك — عنده — إلى أمرين . الأول : أن نهمل ماراد عن حاجتنا — كما أهملنا غيره من قبل — لموت . وضرب الأمثال الكثيرة لهذه المترادفات التى لفظت الأنفاس ، لأننا وجدنا أنفسنا فى غنى عنها . والأمر الثانى : أن نستثمر هذه الألفاظ كما استثمرنا كثيرا منها

فى النحو والصرف

لعل من أكثر الموضوعات اللغوية التى استرعت نظر السكاكينى إلى الدرس بغية التجديد والاصلاح ، باب النحو . ذلك لأنه لمس بنفسه مدى العسر الذى يواجهه طلاب هذا العلم ، ومدى ما يفعله — وهو على هذا النحو — من تأثير سيء فى عقولهم . وشق عليه أن يجد الكثيرين قد حادوا عن الفهم السليم لطبيعة النحو وأهدافه ، فأصبح عندهم غاية ، يدرس لذاته . وتخصصت له مدارس لا يعلم فيها غيره ، من مثل المدرسة النحوية التى كانت تجاور المسجد الأقصى فى بيت المقدس . بل أصبح هو الغاية من كل دروس اللغة والأدب . وشاعت اصطلاحات هذا العلم وشواهده على ألسنة العامة وجمهور الناس أكثر من مصطلحات أى علم آخر . مثل : لا محل له من الإعراب ، وفيه قولان ، وهلم جراً ، وأصبح فى خبر كان ، وقس عليه ما ورد ، إلى غير ذلك من المصطلحات[1] .

ونقل السكاكينى عن قدماء النحاة تعريفهم للنحو وبيان وظيفته ، على أنه فن الإعراب والبناء . وبهذا لم يخرج إلى ما وصل إليه علم اللغات الحديث حول الموضوعات التى يدور عليها هذا العلم وبيان وظائفه . وهى أربع لا تختلف إحداها عن الأخرى فى الأهمية ، وتتضافر كلها معا لتكوين الجملة على سننها المعهود . وأولى هذه الوظائف الاختيار Selection ، الذى يعنى باختيار الصيغ المعينة الموافقة للموقف اللغوى المقصود . وثانيها هو نظام

---

(١) خليل السكاكينى : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٧ : ٣٢٥ .

الجملة word-order ، وهو البحث فى قوانين تأليف الكلام ، وترتيب الكلمات فى الجملة والعبارة . وثالثها المطابقة Concord ، التى تهتم ببحث قوانين مواءمة الوحدات المكوّنة للجملة ، وصيغها المختلفة . وآخرها الإعراب ، إذا كانت اللغة معربة ، وهو يدل على نوع العلاقات القائمة بين أجزاء الكلام مما يرتبط بالمعنى[1] . ومهما يكن مفهوم النحو عند السكاكينى ، فإنه أحس بخروج الكثيرين عن أهداف هذا العلم وفوائده ، التى تتلخص فى التحرز من الخطأ ، وتؤدى إلى سلامة العبارة العربية ، وصيانتها من اللحن والزلل ، وإقامة ملكة هذه اللغة . وأحس بضرورة وصف علاج حاسم لهذا المرض المستشرى . وعلى طريقته العلمية راح يدرس نشأة الحركات الإعرابية فى اللغة العربية ، والأدوار التى تدرج فيها هذا الإعراب راجعاً فى تطورها إلى جذورها الأولى ، وذلك لتشخيص الداء ، قبل أن يقدم على وصف الدواء .

ووجد أن التعرف على أدلة البيان التى تتميز بها وظيفة الكلمة فى الجملة العربية ، قد تدرجت تدرجاً زمنياً على مراحل ثلاث . الأولى منها بالقرينة المعنوية ، نحو فهم مومى المعنى ، أو فهم المعنى مومى . والثانية بالترتيب ، نحو سبق أخى غلامى ، لاحتمال أحدهما أن يكون سابقا أو مسبوقا . والثالثة بالإعراب ، نحو ضرب زيد عمراً ، أو ضرب عمراً زيد .

ورأى أن هذه المراحل لا بد أن تكون قد مرت على أدوار مختلفة قبل أن وصلت إلينا . وأقدم هذه الأدلة — عنده — هى القرينة . فقد كان اعتماد اللغة فى بيان المعنى عليها وحدها . وتصور السكاكينى اللغة فى هذه المرحلة لا تجرى على شىء من الترتيب أو الإعراب ، فكانوا يقدمون أو يؤخرون ، ويرفعون أو ينصبون ، على غير هدى ولا اتفاق . ووجد

(١) دكتور كمال بشر : مجلة « المجلة » ، العدد ١١٤ ، ص ٤٩ وما بعدها .

أن القرينة كانت أوسع من مفهومها الحالى ، فلا بد من قرائن كثيرة تختلف وضوحاً أو غموضاً ، يستدلون بها على المعنى . وفصل فى هـــذه القرائن تفصيلا طويلا مما يدهش القارئ ويزيده كشفا ووضوحا بتبصره وفهمه لتاريخ اللغة العربية وتطور مراحلها . فذكر من هذه القرائن طبقة الصوت وصفته . وكذلك تكرر الألفاظ للتأكيد مع وجود نبرة خاصة فى اللفظة الثانية حتى تؤكد أختها الأولى . ودال على أن هيئة الصوت قد تقلب المعنى إلى ضده ، على نحو سنبينه فيما بعد . ومن هذه القرائن الحال التى يكون عليها الناطق أو القارئ من رضى أو غضب ، من فرح أو حزن ، من هزل أو جد . وعدّ من هذه القرائن الإشارات بأعضاء الجسم وبغيرها كالألوان والأنوار . فمن الناس من إذا قال : هذا أمر عجيب ، رفع حاجبيه ، وإذا قال : نام فلان ، أغمض عينيه وجعل يغط . وقد سدّت لغة الإشارات فراغا كبيراً فى اللغة يوم كانت الألفاظ قليلة . وأتى بأمثلة تبين أن المعنى المادى لا بد أن يسبق المعنى المعنوى . فقالوا مثلا زوى فلان ما بين عينيه ، حين لم يكونوا يعرفون كلمة « غضب » ؛ وامتقع لونه ، حين لم يكونوا يعرفون كلمة « خاف » ؛ ومنبسط الكف كانت قبل نشأة كلمة « كريم » . ويعدّ صاحبنا لغة الإشارات لغة متكاملة ، فيها أحيانا مبالغة وثرثرة ، ويعجب من خلو معاجمنا — قديمها وحديثها — من هذه اللغة .

والترتيب فى العبارة العربية لم يأخذ شكله النهائى أول الأمر . بل مرّ زمن طويل وهو مشوش معتمد على القرائن . ومن آثار هذا التشويش ما نفعله نحن حتى اليوم ، من تقديم الصفة على الموصوف ، فنقول « صريح الرأى » بجانب قولنا « الرأى الصريح » ، و« كبير أمر » بجانب « أمر كبير » . ولكن هذا الترتيب أخذ يتضح أكثر فأكثر ، ويلزم صورة معلومة كذكر

الفاعل قبل المفعول ، وذكر المسند إليه قبل المسند . ولا بدّ من اتباع هذا الترتيب ، إذا خلت العبارة من قرينة معنوية أو قرينة إعرابية .

ثم تولّد الإعراب فى اللغة ، فدخلنا فى المرحلة الثالثة . وتحررنا من قيود الترتيب ، وعدنا إلى التشويش البيانى لا التشويش الاعتباطى ، الذى كانت عليه اللغة فى المرحلة الأولى . ويعدّ السكاكينى المرحلة الثالثة هى أرقى ما وصلت إليه اللغات فى البيان حتى الآن[1] . وقد ساعد الإعراب على حرية بناء الجملة العربية ، ولولاه لاتخذت طابعا من الترتيب له صورة خاصة لايتعداها ، على نحو ما هو فى اللغات الأخرى . ويستنتج من دراسته هذه أن الأدوار التى مرت على الترتيب ثلاثة : الدور المشوش لغير قصد اعتماداً على القرينة ، والدور المرتب ، والدور المشوش لأغراض بيانية اعتماداً على الإعراب والقرينة .

والإعراب نفسه تعرض لمثل هذه الأدوار . فقد كان مشوشاً على غير اتفاق ، اعتماداً — فى بيان المعنى — على القرينة والترتيب . وربما كان الغرض منه أول الأمر تزيين الكلام أو لضرورة شعرية . ولاحظ السكاكينى أن الإعراب فى العربية يسقط عند الوقف . وكان من الممكن أن يسقط نهائيا ، فتعود اللغة كما كانت دون إعراب ، لولا أنه انتقل — فى مهمته — من تزيين الكلام إلى بيان وظيفة الكلمة فى الجملة . فأصبح من مقومات اللغة العربية وخصائصها . كما ساعد — عند التقديم والتأخير — على دلالة

(١) سبقه إلى شىء من هذا روحى الخالدى فى كتابه : علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو ، ؛ انظر : دكتور عبد الرحمن عبد الوهاب ياغى : حياة الأدب الفلسطينى الحديث حتى النكبة ، ص ٤١٩/٤٢٠ .

معان تعجز اللغات الأخرى عن أدائها ، وعلى جعل الجملة العربية مرنة طيّعة . والدعوة إلى إلغائه وتسكين أواخر الكلمات تُرجع اللغة إلى اللبس والغموض .

ولكنه يرى أن الإعراب لم يتم نضجه ، وأخذ يشكو من كثرة آثار هذا التشويش فيه . والأصل — عنده — أن يكون على وجه واحد . فالفاعل لا يجوز فيه إلا الرفع . والمفعول به لا يجوز فيه إلا النصب . والمخفوض لا يجوز فيه إلا الخفض . ولكننا نلقى حالات يجوز فيها وجهان ، وحالات يجوز فيها ثلاثة ، وبعضها يصل إلى عشرة . ومن خلال مناقشته لقول النحاة ان للاسم ثلاث حالات : الرفع والنصب والخفض ، وصل إلى أن هناك حالة رابعة ، هى بين بين ، غير أن علامات الإعراب التى بين أيدينا تقف قاصرة دون التعبير عنها تعبيراً خاصاً بها . ومثل لذلك بأدلة من مزيدات الفعل على أوزان المشاركة والمطاوعة ، فرأى مثلا فى «ضاربَ زيد عمراً» ، أن كلا الإسمين فاعل ومفعول فى وقت واحد . وهذه المشاركة واضحة من الوزن لا من علامة الإعراب . فكيف يمكن الإعراب إذن أن يؤدى علامة الفاعلية والمفعولية لكلا الإسمين فى الوقت نفسه ؟ وواضح من هذا كله أنه كان يرى من آفات النحو تعدد الآراء فى المسألة الواحدة ، واختلاف الأحكام فيها ، مما سبب الاضطراب والتعارض . وأنه كان يميل الى الأخذ بالمشهور من الإعراب ، وتحكيم القاعدة العامة ، والاقتصار من المذاهب على أشيعها ، وهجر الشاذ منها[1] .

ولعل ألصق أبحاثه بفكرة اقتصاره على أشيع المذاهب ، ماعبر فيه عن احساسه بالضيق من أثر ما وجد من التشويش الذى ألفناه واستعملناه كأنه أصل من أصول اللغة فى ، حين أن الحق غير ذلك . ومن هذا

(١) خليل السكاكينى : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٨ : ٣١٤ — ٣٢٠ .

التشويش مايقع فى الإفراد والتثنية والجمع . كاستعمالنا المفرد بدل المثنى من مثل قولنا : لبس الجوربين ، بدل الجوربين ، ولبس نعله ، بدل نعلين وكقولنا : هو راسخ القدم فى العلم ، بدل راسخ القدمين . واتبع هذا الأسلوب كثير من الشعراء والأدباء . وقد نستعمل المثنى بدل المفرد والمفرد بدل الجمع ، نحو باتوا سامراً أى متسامرين . وقد نستعمل الجمع بدل المفرد . والجمع بدل المثنى . والمثنى بدل الجمع . وقد نستعمل المفرد للواحد والواحدة والجمع ، مثل : هو صديق ، وهى صديق ، وهم صديق ؛ ونستعمل صيغة الفاعل بدل صيغة المفعول ، وصيغة المفعول بدل صيغة الفاعل . ومن آثار التشويش أيضاً مايقع فى التذكير والتأنيث . فنذكر الصفة مع المؤنث ، فيقال حمى صالب ، فى حين يقال حمى ثانية . ويقال الجارية الناشئ ، والمرأة البادن ، والشاة الداجن . ويتساءل عما إذا كانت الصفات كلها للذكر ثم انقسمت إلى مذكر ومؤنث ، أم كان هناك تذكير وتأنيث ثم مالت اللغة إلى التذكير ؟ ولا يحسم فى الأمر ، بل يترك الإجابة عليه لعلماء فقه اللغة Philology .

وقد يقع التشويش فى صيغ الفعل الثلاث ، من ماض ومضارع وأمر ، فنستعمل إحداها بدلا من الأخرى ، مما رأى آثاره فى اللغة العربية إلى اليوم . وعلى نحو ماهو موجود فى اللغة العبرية فى مثل : «اذهب وقلت لهذا الشعب» . وامتد هذا التشويش إلى مباحث الصرف من أوزان الفعل . فقد يجىء المزيد بمعنى المجرد ، من مثل : هدر وأهدر ، وحب وأحب . ويجىء فعل وتفعل بمعنى واحد فى : بدل وتبدل ، ودنى وتدنى . ويجىء فعل وافتعل بمعنى واحد فى : حل واحتل ، وغفر واغتفر . وقد يجىء المزيد من وزن بمعنى المزيد من وزن آخر فى الفعل نفسه ، كما فى تفعل واستفعل من مثل : تعجل واستعجل ، وتأخر واستأخر . وقد يجىء فعل وتفعل وتفاعل وافتعل واستفعل بمعنى واحد ، نحو : مسك وتمسك وتماسك

وامتسك واستمسك . وينتهى إلى أن التشويش فى المزيدات كثير ، فلا يخلو مزيد من أن يكون بمعنى المجرد ، ولا يخلو مزيد من أن يكون بمعنى مزيد آخر من الفعل نفسه .

ولا يعجبه أن نضحى بأصول اللغة وقياسها ، فى سبيل مايسمى بالمشاكلة أو المزاوجة ، أو غير ذلك . كقولهم : إذا لم تغلِب فاخلِب ، فإن الأصل فى فعل «خَلَبَ» أن يكون من باب نصر ، ولكنهم كسروه لمشاكلة «تغلِب» . وكقولهم : إنى لآتيه الغدايا والعشايا ، والغداة لاتجمع على غدايا ، وإنما فعلوا ذلك لمشاكلة العشايا . وكقولهم الهُرْج والمَرْج ، بتسكين الراء فى المرج للمزاوجة . وواضح من هذه الأمثلة ابتغاء العرب الانسجام بين ألفاظ اللغة والتساوق الموسيقى بين أصواتها . لكن السكاكينى أكثر من الأدلة الساطعة لآثار هذا التشويش ، بحيث لاتدع مجالا للشك فيما يرى من تناقض علل اللغويين . وكانت مصادر أدلته من المعاجم وأقوال الشعراء على مختلف العصور السالفة ، موضحاً مافيها من تجوزات عدّها تجنياً على اللغة . وهو فى هذا المبحث كله[1] ، لايقبل العبث فى أصول اللغة . ولا يريد فيها شذوذاً ولا انحرافاً يخرجها عن طريق القياس . وكأنه يرى إشاعة القياس وإطلاقه إلى أبعد مدى ، ويودّ للغة أن تخضع لقوانينه خضوعاً صارماً .

وللسكاكينى دراسة فى الأفعال ، لأنها فى العربية — بل فى كل لغة — من أهم أبوابها . وقرر أن صيغة الفعل العربى مأخوذة من المصدر ، وانه ليس إلا صورة من صور المصادر القديمة الأولى ، لا المصادر التى بين أيدينا المنفرعة عن أصلها القديم . ولو صدق هذا الفرض لصحّ أن العرب

---

(١) المرجع السابق ، ج ٨ : ١١٧ — ١٢٣ .

كانوا يصرفون المصدر مع الضمائر . ويؤيد ذلك الأثر الباقى فى اللغة إلى اليوم ، فإننا نستعمل المصدر أمراً فنقول صبراً ومهلاً ورفقاً . والآثار الباقية فى الفعل المأخوذة من المصدر قد توهم أن الفعل هو الأصل ، وأن المصدر هو الفرع . وأرجع بعض ما وضع من أسماء الأحداث محكياً عن الأصوات المسموعة من الحيوان أو الجماد على الصورة التى بقى فيها المصدر فى السريانية . وحاول أن يوجد بعض مجموعات من أوزان المصادر ، لكل وزن معنى عام . فالمصدر من المضاعف على وزن جرّ تراعى فيه حكاية الصوت ، أو حكاية الحركة ، أو حكاية صفة الشىء . أما المصدر من الأجوف على وزن قام فأكثر مايقصد به حكاية الحركة .

ورأى أن الضمائر فى العربية فى أصلها منفصلة كما هو الحال فى اللغات الأجنبية . ومع مرور الزمن نحت منها — لطولها — الضمائر المتصلة . أما أزمان الأفعال ، فيرى أنها قد مرت بدور مشوش باستعمال صيغة بدل أخرى ، على نحو ما أشرنا إليه فى غير هذا الموضع . ولا يجد السكاكينى فى العربية علامة خاصة بالزمان ، وعلامة خاصة بالفاعل على نحو ماهو موجود فى اللغة الإنكليزية ، فى مثل He walked. فلفظة He علامة للفاعل ، ولفظة walk صيغة الفعل ، ولفظة ed علامة الزمان . ذلك لأن العرب استخدموا علامة الفاعل للدلالة على الفاعل بلفظها ، وعلى الزمان بموضعها . فإذا أرادوا المضى وضعوا علامة الفاعل فى آخر الفعل ، نحو : ضربتُ . وإذا أرادوا الحاضر وضعوا علامة الفاعل فى أوله ، نحو : أضرب . وإذا أرادوا المستقبل استخدموا صورة الحاضر مع قرائن أخرى كالسين وسوف وغيرهما .

وأكثر ما يلفت النظر ملاحظته أن الأفعال الثلاثية فى العربية مرت على دورين . الأول منهما هو الذى كانت فيه صيغتا الماضى والمضارع

متشابهتين . والثانى هو الدور الذى وقع فيه الاختلاف بينهما . وافترض أن لو بقيت اللغة مطلقة على حالها لأتى دور ثالث يختص فيه كل باب من أبواب أوزان الفعل بمعنى أو معنيين أو أكثر لا يجىء عليه إلا أفعال خاصة . ولكن عهد التدوين وقف فى وجه الدور الثالث ، وإن ظهرت طلائعه فى اللغة قبل هذا العهد . فإننا نجد أن الأفعال التى تدل على عيب فى الخلقة لا تجىء إلا من باب علم يعلم مثل خرس يخرس . والأفعال التى تدل على الغرائز يجىء أكثرها على باب كرم يكرم مثل شرف يشرف . ويخلص السكاكينى إلى أن التدوين وقف فى وجه الدور الثالث ، وأصبح هذا الجمود فى اللغة لا ينطبق « على مذهب النشوء والارتقاء »[1] .

وتتبع بشىء من الاهتمام تاريخ علم النحو والصرف . فرأى أن العناية بقوانين اللغة مذهب قديم ، عنى به اليونان والرومان والسريان ، وعن هؤلاء أخذ المتأخرون هذا العلم تقليداً أو عدوى . فالعرب أخذوه عن السريان فى العراق . والإفرنج اقتبسوا مصطلحات اللغتين اليونانية واللاتينية ، فبقيت غريبة عن أفهام طلابهم إلى اليوم . ورغم أن اللغة الإنكليزية تخلو من علامات إعرابية إلا أن أصحابها أخذوا حالات الإعراب المختلفة من اللغة اللاتينية المعربة وطبقوها على لغتهم ، وكأن مثل هذه المصطلحات شىء ضرورى لكل لغة لا بدّ من الأخذ به . وتأخذه الدهشة لأن حالة المسند إليه فى الاسم فى اللغة الإنكليزية يطلق عليها الرفع Upright ، وما سواها الخفض Falling ، وفقاً لما جاء فى اصطلاح العرب . ويرى أن الصعوبة تكمن فى أخذ نحو لغة ما وتطبيقه على لغة أخرى . كما يرى أن تعلق المتأخرين

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ١٩ - ٣٠ .

— من عرب وإفرنج — بقوانين لغة السريان والكلدان واليونان واللاتين ، دون حاجة إليها ، هو سبب هذا الداء[1] .

وينتقل السكاكيني إلى عصر التدوين العربي ، فيرى أن النحو والصرف — وهما من العلوم اللسانية — ابتدآ بالاستقراء والتطبيق ، كاستقرائهم أن الفاعل مرفوع ، وأن « الرجلُ » في قولنا : « جاء الرجلُ » مرفوع لأنه فاعل . ثم انتقل هذان العلمان إلى مرحلة التبويب والترتيب ، فتتبع العلماء الأحكام الكلية ورتبوها في فصول وأبواب ، ضُمّ فيها النظير إلى نظيره ، والفرع إلى أصله . ولم يكن لأحد من هؤلاء العلماء فضيلة البحث أو الإتيان بشيء جديد ، وإنما اقتصروا على مذاهب البصريين والكوفيين . ولم تلبثه هذه المرحلة حتى جاءت مرحلة حاول فيها فريق من العلماء أن يأتوا بشيء جديد ، خارجين عما عهد من التقليد ، ففتحوا بذلك باب الاجتهاد . ويرى السكاكيني أن باب الاجتهاد مازال مفتوحاً لكل عالم يود الخير للغته ، أو هكذا يجب أن يكون .

وتكشّف له أن النحاة والصرفيين أساءوا إلى علمي النحو والصرف ، لأن أحكامهم فيهما لم تكن تُربط أسبابها بالنتائج ، ولا تُرجع النتائج إلى أسبابها . واختاروا في أحكامهم « وحدة القاعدة » ، أي إذا كان الكلام أنواعاً وضعوا قاعدة كلية لنوع منها ، وجعلوا بقية الأنواع فروعاً لهذا النوع ، فأخذوا يسوّغون ويعللون بأسباب واهية ، حتى ضرب المثل بضعف حجة النحوي . وأوغلوا في التعقيد والإغراب ، وأسرفوا في اللجوء إلى الافتراض ، والتعليل ، والتأويل المصنوع . وتوسّعوا في وضع قوانين اللغة على غير حاجة إليها وبأكثر مما يكفي لإقامة الملكة . وبالغوا في الاستنباط مما أخرج النحو

(١) خليل السكاكيني : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٧ : ٣٢٥ - ٣٢٦ .

مثلا إلى سبيل المماحكات اللغوية ، والتخريجات النحوية ، والفلسفة ، والمنطق العقلي ، والجدل ، وأصبح صناعة وغاية ، لا علماً ولا واسطة ، كما أصبح رياضة عقلية يستمد مادته من الذهن لا من اللغة ولا من الواقع . وينتهي إلى أن الطالب الذي يتعلم النحو والصرف المقام على هذا الأسلوب السطحي الشاق ، ويقتنع بهذه العلل الواهية ، يتلقاها دون روية ولا تفكير ، تظل بصيرته مع الأيام ، ويأفن رأيه ، فضلا عمّا يستغرقه الدرس من الوقت الطويل عبثاً ، دون أن يقيم به لسانه[1] .

وضرب السكاكيني الأمثال على اتباع النحاة والصرفيين مذهب « وحدة القاعدة » وما نجم عن ذلك من افتراض ، وتعليل ، وإعلال ، وإدغام ، وقلب ، وإبدال . فقسم النحاة علامات الإعراب إلى أصلية وفرعية جرياً على هذا المذهب . وقال الصرفيون إن الفعل الثلاثي يبنى على وزن « فَعَلَ » مثل « ذَهَبَ » . ولكنهم وجدوا أن هذه القاعدة لا تنطبق على الفعل المضاعف مثل « مَدّ » ، أو الفعل الناقص مثل « رمى » ، أو الفعل الأجوف مثل « قال » . فلجئوا إلى ما يؤيد قاعدتهم ، فقالوا إن « مَدّ » أصلها « مَدَدَ » . و« رمى » أصلها « رَمَيَ » ، وقال أصلها « قَوَلَ » . وتحولت هذه الأشكال عندهم بالإعلال والإدغام إلى الصورة التي وصلتنا ، وذلك كله لتصح لهم القاعدة الكلية .

وكذلك قالوا إن الاسم على وزن « فعيلة » يجمع على « فعائل » ، كقبيلة ، و« قبائل » ، ولكن هذه القاعدة لا تنطبق على مثل « قضية » ، لأنها تجمع على « قضايا » ، فلجئوا إلى القول بأن قضايا أصلها قضائي على وزن « فعائل » ، ووصلت إلى صورتها الحالية بعد أربع خطوات ، يتضح من تفاصيلها مدى التورط الذي وقع فيه هؤلاء الصرفيون . ولم يقف هذا التورط عند هذا

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني ، ج ٢ : ١٩ .

الحد ، بل أوردوا من الأمثلة ما أوجدوا فيها خمس خطى إلى أن وصلت إلى صورتها الحالية ، مثل ما قيل فى « مطايا » و « خطايا » ، جمع « مطية » و « خطيئة » .

ولا يشك السكاكينى فى أن لجوءهم إلى « وحدة القاعدة » كان بسبب رغبتهم فى تسهيل الأمر ، لكنهم صعّبوه وشلوا الأذهنة من حيث أرادوا ترويضها . وهو لا يتردد فى حلّ هذا التعقيد وفى تجريد هذه القواعد من الخرافات ، فدعا إلى « تعدد القاعدة » ، بمعنى أن نضع قاعدة لكل نوع من أنواع الكلمة ، أو لكل مجموعة من مجموعاتها ، لأنه أسهل على الطالب وغير الطالب أن يصبح لدينا قاعدة للفعل الصحيح ، وأخرى للمضاعف ، وثالثة للناقص ، ورابعة للأجوف ، وقاعدة تشمل جمع « قبيلة » و « رسالة » على « قبائل » و « رسائل » ، يُضمّ إليهما أشباههما ، وقاعدة أخرى تشمل كل ما يندرج تحت قضية ومطية وخطيئة التى تجمع على قضـــايا ومطايا وخطايا ، دون اللجوء إلى الإعلال والإدغام ، والقلب ، والإبدال ، لتصل إلى الأصل الموهوم [1] . وواضح هنا أن السكاكينى يعنى أن النحو والصرف أداتان واصفتان للغة ، لذلك أراد تخليصهما من التعليـل والمنطق اللذين يعدان من أكبر أمراضهما .

وتعقّب صاحبنا النحاةَ فى مادة النحو ذاتها ، فطرق مسائل نحوية متعددة ، وافقهم فى بعضها فأثنى عليهم فيها ، وخالفهم فى بعض آخر فاستباحهم عفواً . فهم يعتبرون الألف والواو والياء حروفاً ، أما هو فالصحيح عنده أن الألف حركة طويلة من الفتحة ، كما يتضح فى : كتاب وسماء ومادة . ويرى أن الأسماء الخمسة من المعربات بالحركات القصـــيرة أو الطويلة ،

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٢٤٢ — ٢٤٤ .

لا بالحروف ، مستدلا على أن اللغة العربية القديمة ربما كانت تعرب بالواو والألف والياء ، أسوة باللغة النبطية ، ثم استبدلت بالحركات الطويلة هذه حركات قصيرة فى جميع الأسماء تخفيفاً ، إلا ما بقى واضحاً فى بعض حالات الأسماء الخمسة ، فقد عدّه أثراً باقياً من ذلك العهد .

ويوافق النحاةَ القدماء فيما وصلوا إليه فى صفة علامات الإعراب . فالضم هو أقوى الحركات وأفخمها ، والفتح أخفها ، والخفض أثقلها . ويربط بين كثرة هذه الحركات أو قلتها فى اللغة ، وبين البيئة الطبيعية العامة التى نشأ فيها ، مما سنبينه فى غير هذا الموضع . ويقرر أن النحاة لم يوفقوا فى اختيار ألقاب الإعراب ، لا سيما لفظة « نصب » .

ويناقش النحاةَ فيما قالوه من الحالات الإعرابية للاسم ، فهو عندهم إما عمدة ، وإما فضلة ، وإما مشترك بينهما . وحالة العمدة الرفع ، وحالة الفضلة النصب ، وحالة المشترك بينهما الخفض . لكنه يخالفهم فى أن فى الكلام فضلة ، لأن الفضلة لغو يمكن الاستغناء عنه . والحقيقة أن كل جزء من الكلام عمدة لا يستغنى عنه ، سواء فى ذلك الأسماء والأفعال والحروف على اختلاف حالاتها ، لاحتياج العبارة إلى كل جزء من أجزائها لإتمام المراد منها . وينتهى بعد تحليل طويل إلى أن الاسم يرفع لأنه مهم أو قوى ، وينصب لأنه ضعيف أو كثير الدوران على اللسان . وهاتان هما حالتا الاسم فى الأصل . ويرجّح أن حالة الاسم فى الخفض حالة طارئة على اللغة ، أو هى أثر من آثار التشويش الإعرابى ، لأنه لا حاجة إليها ، فضلا عن أن الخفضَ ثقيل مستبشع . ولولا القليل من الحالات لزال الخفض من الاسم كما زال من الفعل المضارع . ويستدلّ على ذلك كله بأدلة كثيرة تكشف عن سعة اطلاع ، وعمق تبصر [1] .

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٥ — ١٨ .

الحد ، بل أوردوا من الأمثلة ما أوجدوا فيها خمس خطى إلى أن وصلت إلى صورتها الحالية ، مثل ما قيل فى « مطايا » و « خطايا » ، جمع « مطية » و « خطيئة » .

ولا يشك السكاكينى فى أن لجوءهم إلى « وحدة القاعدة » كان بسبب رغبتهم فى تسهيل الأمر ، لكنهم صعّبوه وشلوا الأذهنة من حيث أرادوا ترويضها . وهو لا يتردد فى حلّ هذا التعقيد وفى تجريد هذه القواعد من الخرافات ، فدعا إلى « تعدد القاعدة » ، بمعنى أن نضع قاعدة لكل نوع من أنواع الكلمة ، أو لكل مجموعة من مجموعاتها ، لأنه أسهل على الطالب وغير الطالب أن يصبح لدينا قاعدة للفعل الصحيح ، وأخرى للمضاعف ، وثالثة للناقص ، ورابعة للأجوف ، وقاعدة تشمل جمع « قبيلة » و « رسالة » على « قبائل » و « رسائل » ، يُضمّ إليهما أشباههما ، وقاعدة أخرى تشمل كل ما يندرج تحت قضية ومطية وخطيئة التى تجمع على قضـــايا ومطايا وخطايا ، دون اللجوء إلى الإعلال والإدغام ، والقلب ، والإبدال ، لتصل إلى الأصل الموهوم [1] . وواضح هنا أن السكاكينى يعنى أن النحو والصرف أداتان واصفتان للغة ، لذلك أراد تخليصهما من التعليـل والمنطق اللذين يعدان من أكبر أمراضهما .

وتعقّب صاحبنا النحاةَ فى مادة النحو ذاتها ، فطرق مسائل نحوية متعددة ، وافقهم فى بعضها فأثنى عليهم فيها ، وخالفهم فى بعض آخر فاستباحهم عفواً . فهم يعتبرون الألف والواو والياء حروفاً ، أما هو فالصحيح عنده أن الألف حركة طويلة من الفتحة ، كما يتضح فى : كتاب وسماء ومادة . ويرى أن الأسماء الخمسة من المعربات بالحركات القصـــيرة أو الطويلة ،

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٢٤٢ — ٢٤٤ .

لا بالحروف ، مستدلا على أن اللغة العربية القديمة ربما كانت تعرب بالواو والألف والياء ، أسوة باللغة النبطية ، ثم استبدلت بالحركات الطويلة هذه حركات قصيرة فى جميع الأسماء تخفيفاً ، إلا ما بقى واضحاً فى بعض حالات الأسماء الخمسة ، فقد عدّه أثراً باقياً من ذلك العهد .

ويوافق النحاةَ القدماء فيما وصلوا إليه فى صفة علامات الإعراب . فالضم هو أقوى الحركات وأفخمها ، والفتح أخفها ، والخفض أثقلها . ويربط بين كثرة هذه الحركات أو قلتها فى اللغة ، وبين البيئة الطبيعية العامة التى نشأ فيها ، مما سنبينه فى غير هذا الموضع . ويقرر أن النحاة لم يوفقوا فى اختيار ألقاب الإعراب ، لا سيما لفظة « نصب » .

ويناقش النحاةَ فيما قالوه من الحالات الإعرابية للاسم ، فهو عندهم إما عمدة ، وإما فضلة ، وإما مشترك بينهما . وحالة العمدة الرفع ، وحالة الفضلة النصب ، وحالة المشترك بينهما الخفض . لكنه يخالفهم فى أن فى الكلام فضلة ، لأن الفضلة لغو يمكن الاستغناء عنه . والحقيقة أن كل جزء من الكلام عمدة لا يستغنى عنه ، سواء فى ذلك الأسماء والأفعال والحروف على اختلاف حالاتها ، لاحتياج العبارة إلى كل جزء من أجزائها لإتمام المراد منها . وينتهى بعد تحليل طويل إلى أن الاسم يرفع لأنه مهم أو قوى ، وينصب لأنه ضعيف أو كثير الدوران على اللسان . وهاتان هما حالتا الاسم فى الأصل . ويرجّح أن حالة الاسم فى الخفض حالة طارئة على اللغة ، أو هى أثر من آثار التشويش الإعرابى ، لأنه لا حاجة إليها ، فضلا عن أن الخفضَ ثقيل مستبشع . ولولا القليل من الحالات لزال الخفض من الاسم كما زال من الفعل المضارع . ويستدلّ على ذلك كله بأدلة كثيرة تكشف عن سعة اطلاع ، وعمق تبصر [1] .

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٥ — ١٨ .

ولم يفت السكاكيني ما لقي في النحو من تعقيد بسبب تعدد التفاصيل ، وأخذ يعالج بعض مشكلاته . فلما تناول مشكلة العدد في اللغة العربية[1] ، وجد له من التفاصيل المختلفة ما تبرّم بها كثيرون من خطباء وكتاب وشعراء وأساتذة ومذيعين . ولعلّ من الطريف أن نذكر ما كان يتمثل به من قول أحد الشعراء الظرفاء :

في النحو لا يقهرني .·. إلا تفاصيل العدد

وحصر هذه التفاصيل ، فوجدها سبع عشرة حالة . وسرد لنا الطرق التي يلجأ إليها كثيرون حتى تجنبهم الوقوع في خطأ العدد . فمنهم من يلجأ إلى العامية ، وإن كانت تفاصيله فيها لا تقل عنها في اللغة الفصحى . ومنهم من يلجأ إلى لفظة « كثير » أو « قليل » هرباً من العدد نفسه . ومنهم من يكتب أرقام العدد لا كلماته . ومنهم من يلجأ إلى أصابع اليد . ومنهم من يعرف بعض أحكام العدد المفرد ، ولكنه لا يعرف أحكام العدد المركب ، فيلجأ إلى العطف كأن يقول : بنت سبع وأربع وثلاث . ويسجّل لنا ملحظاً دقيقاً يستحق الذكر ، ذلك أن منازل الأعداد تبدأ من اليمين إلى اليسار ، فنقول : عندي خمسة عشر كتاباً ، ورأيت من الطلاب ستة وعشرين ومئة . وهذا هو الترتيب الطبيعي . ولكننا خالفنا هذه القاعدة منذ زمن بعيد ، وبدأنا في الأعداد من اليسار إلى اليمين ، فنقول : ستة ألف وتسع مئة واثنتين وخمسين .

وتناول باب الاشتغال فوجده زخر بتفاصيل قد تفوق تفاصيل العدد .

(١) في بحث قرر مؤتمر مجمع اللغة العربية إحالته إلى لجنة الأصول ؛ انظر مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٩ : ٦٦ — ٦٨ .

وحسبنا أن نعرف أن هذا الباب استغرق نحو اثنتي عشرة صفحة بالحرف الدقيق من كتاب الصبّان على الأشموني على ابن مالك ، بأسلوب شاق ولغة عسيرة ، ودون تبويب ولا ترتيب . ويرى أن النحاة لم يوفقوا في فتح هذا الباب ، لأن أكثر أحكامه لا تخلو من تكلف التأويل والتفسير ، والفرض والتقدير ، مما لا يجيزه سبب معقول ، ولا يسوّغه استعمال[1] .

ويتّجه السكاكيني إلى الحياة الاجتماعية السائدة في عصر النحاة ، وأثرها في أحكامهم وقوانينهم . وتوجه بالنقد الشديد إليهم من هذه الناحية . فالأخفش يخصّ النساء — في الغالب — بالتّذية ، لأنهن — عنده — أضعف عن احتمال المصائب ، ويوافق الصبّانُ في حاشيته الأخفش على ذلك . أما صاحبنا فلا يذهب هذا المذهب ، لأن المرأة في رأيه أقدر على احتمال المصائب . كما أن التفجع عند حلول الكوارث لا يعدّ ضعفاً . وتوجه بنقد أشدّ إلى هؤلاء النحاة لتغليبهم المذكر على المؤنث ، كإطلاق لفظة الأبوين على الأب والأم ، بحجة أن المذكر أفضل من المؤنث . ويعزو أسباب ذلك إلى أنهم كانوا رجالا ، وأن المرأة في زمانهم كانت موضع احتقار الرجل[2] .

وامتد بصره إلى المصطلحات النحوية والصرفية ، فاعتزّ بها لأنها مأخوذة من اللغة العربية ذاتها ، لا مستعارة من غيرها ، كما هو الحال في اللغات الأجنبية . واستثنى من ذلك لفظة « نحو » لأنه قيل إنها دخيلة . بيد أنه رأى أن بعض هذه المصطلحات مأخوذ من مصطلحات المناطقة ، كمصطلحي « موضوع » و « محمول » مما يستغلق فهمهما على طلاب المرحلة

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني ، ج ٢ : ٣١٦ وما بعدها .
(٢) خليل السكاكيني : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٩ : ٦٨ - ٦٩ .

ويبدو أنه قد وجد ذلك غير كاف للتخفيف من صعوبة هذا العلم على الطلاب ، أو كأنه لم يقنع بجدوى هذه الطريقة ، لأنه لم ير النقص فى النحو ذاته فحسب ، بل رآه فى طريقة تعليمه أيضاً . وبهذا شملت نظرته هـــذا العلم من ناحيتيه العلمية والتعليمية . ولذلك التفت يدرس أساليب تعليم القواعد وتاريخ مراحلها على مر العصور ، فرآها على أساليب ثلاثة [1] . أولها الأسلوب الأندلسى ، الذى يجمع بين القواعـــد والشواهد ، وهو ما جرى عليه سيبويه فى كتابه . وهو نوعان : من القاعدة إلى المثال ، وهو على وشك أن يبطل استعماله ، ومن المثال إلى القاعدة ، وهو كثير الشيوع . وثانيها الأسلوب المغربى ، الشائع فى المغرب وافريقية ، وهو يقتصر على القواعد دون الشواهد . وقد يبتن ابن خلدون أن هـذا الأسلوب بعد القاعدة غاية فى ذاتها ، دون أن تستطيع إقامة ملكة أو تقويم لسان من الاعوجاج واللحن . وكثر شيوع هذا الأسلوب حتى الزمان الأخـــير . وآخر هذه الأساليب ما يسميه السكاكينى بالأسلوب الخلدونى ، الذى يقتصر على الشواهد دون القواعد ، فيسار فيه من الشاهد أو المثال إلى الاستعمال ، ويقاس الكلام بعضه على بعض وليس على أحكام مجردة ، بحيث تصبح اللغة ملكة وسليقة ، لا قاعدة وتكلفاً . فيقول الطالب : « قال الرجلُ » ، بالضم ، قياساً على : « قال النبىُّ » . ويقول : « النهارُ جميلٌ » ، برفع الإثنين ، قياساً على : « العلمُ زينٌ » ، وإذا أخطأ أرشدناه [2] .

واستراح السكاكينى إلى الأسلوب الأخير ، وتبناه . وراح يدعو إليه ،

(١) تجدها فى ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٦٠ — ٥٦١ .
(٢) خليل السكاكينى : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٧ : ٣٢٦ وما بعدها .

ويلح فيه ، فى كل مجال [1] . وطالب بإلغاء القواعد بجملتها إلغاء تاماً ، فلا درس خاصاً بها ، ولا تعلم للطالب لذاتها ، إذ يمكنه أن يتعلم اللغة بالسماع والتقليد والاستعمال ، دون تعلم قواعدها ، كما يتعلم الطفل لغة أمه ويحسن ملكتها ، وكما يتعلم كيف يمشى بالتقليد والمران .

وإذا كانت الصعوبة الموجودة فى لغتنا المعربة هى التى حدت ببعضهم أن يرى تعلم القواعد لا محيد عنه ، فإن هناك من اللغات ما يفوق العربية فى الصعوبة بمراحل ، من مثل اللغة الألمانية واللغة الروسية ، لتعدد الحالات على الاسم وكثرة الشذوذ فيهما . وهو وإن لم ينكر وجود قواعد يتعلمها الطالب فى اللغات الأجنبية ، إلا أنه سجل أن هناك نزعة إلى الأسلوب الخلدونى عند أصحاب هذه اللغات . فللغة الإنكليزية ثلاثة أساليب لتعليمها ، أولها أن تعلم على أصول اللغة اللاتينية ، مع أن الإنكليزية شىء ، واللاتينية شىء آخر . وثانيها أن تعلم على أصول تقتضيها اللغة الإنكليزية نفسها . وثالثها أن تعلم بدون قواعد . ويستشهد على جدوى الطريقة الأخيرة بالاختبار الذى أجرى فى أمريكا وأثبت أن الطلاب الذين يتعلمون اللغة بدون قواعد أصح ملكة من الطلاب الذين يتعلمونها بقواعد .

ولم يكتف السكاكينى بهذه البراهين ، فقد أراد أن يكسب المعركة ، ملقيا بكل قواه وأسلحته فيها ، فرجع إلى التراث العربى قبل التدوين ، حين

(١) فى مقال بجريدة « السياسة » فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، وفى كتابه « مطالعات فى اللغة والأدب » سنة ١٩٢٥ ، وفى كتابه « الدليل الثانى » سنة ١٩٣٦ [أعيد طبعه مع « الدليل الأول » بعنوان « الأصول فى تعليم اللغة العربية » سنة ١٩٥٢] ، وفى رده على تقرير لجنة التيسير سنة ١٩٣٨ ، وفى المؤتمر الثقافى العربى الأول سنة ١٩٤٧ ، وفى بحث إلى مجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٨ .

كان العرب يحسنون النطق الصحيح على غير علم بالقواعد أو تعلمها . فوجد من الشعراء والخطباء المطبوعين من نبغوا فى فنهم قبل وضع علم النحو ذاته ، ودون أن يعرف بعضهم القراءة والكتابة ، من مثل المتلمس والفرزدق وذى الرمة ، وبأقوال هؤلاء وغيرهم استقرأ النحاة أحكام النحو . وحال هؤلاء كحال أفلاطون — رب البلاغة — الذى لم يكن يعرف من قواعد اللغة اليونانية شيئاً . وكذلك شكسبير — معجزة الدهر — الذى لم يكن يعرف من قواعد الإنكليزية شيئاً . ومن المحدثين نجد محمود سامى البارودى — متنبى عصره — قد تعلم العربية على الأسلوب الخلدونى[1] . كما لوحظ ان الذين يقومون بتمثيل الروايات الموضوعة بالعربية الفصحى قد أصبح الإعراب فيهم ملكة ، مع أن أكثرهم أميون .

ولا شك أنه كان يدرك مدى الهوة الواسعة التى تفصل بين العربية الفصحى والعامية — وقد بلغ الاختلاف بينهما إلى مستوى الأصوات ، والألفاظ ، والتراكيب ، والإعراب — فلم يفته أن يضع لدعوته هذه شروطاً اشترطها حتى يضمن بها إقامة الملكة العربية دون تعلم القواعد . وأول هذه الشروط أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة التعليم ، ليس فى دروس اللغة نفسها فحسب ، وإنما فى كل درس ، لا ينفرد بها معلم دون آخر ، بل يشترك فيها جميعهم ، لأن كلا منهم مسئول عنها يؤديها فى دروسه عن معرفة ووعى ، لا يتوكأ فى حديثه إلى الطلاب على العامية ، فالطالب أسرع إلى تقليد لغة معلمه منه إلى تقليد لغة كتابه ، لأن اللغـــة تؤخذ بالسماع

(١) لقد ذكر هذه الحقيقة مرتبطة برأى ابن خلدون ، الشيخ حسين المرصفى (المتوفى ١٨٩٠ ، وأستاذ البارودى ومعاصره) فى مؤلفه (الوسيلة الأدبية لعلوم العربية) ؛ انظر : محمد خلف الله أحمد : معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها ، الجزء الأول (مصر فى القرن التاسع عشر) ، ص ١٣٨ .

والاستعمال دون شىء آخر . بل أبعد السكاكينى إلى أكثر من ذلك ، حتى عدّ باب العدد ، والكسور ، وأحكام التمييز فى المكيلات ، والمقيسات ، والمعدودات ، والكنايات ، لا سيما ، كم ، الاستفهامية ، ألصق بمعلم الحساب منها بمعلم اللغة العربية ، مما يقتضى أن يراعيها فى دروسه ، ويكثر من التمرين عليها[1] . وثانى هذه الشروط أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة التخاطب ، لأن أحسن الطرق لاكتساب ملكة اللغة هى مشافهة أهلها ومعايشتهم[2] .

ولم يقف السكاكينى فيما دعا إليه من إلغاء تعليم القواعد إلى الحد النظرى فحسب ، بل كان من هؤلاء المدرسيين ، قد بصره إلى الناحية التطبيقية ، وأعطى أمثلة حية لما أراد ، وقدم نماذج من حلوله . ورأى أن التلميذ حين يسمع من معلمه : قمْ ، أقعدْ ، افتحْ البابَ ، اقرأ السطرَ الأول ، اكتبْ ، امحِ اللوحَ ، أمسكْ القلمَ ، فإنه يتعلم فعل الأمر من قامَ وقعدَ وقرأ وكتبَ ومحا وأمسكَ ، ويتعلم أن ينصب المفعول به فى « افتح الكتابَ » وأشباهها ، ثم يقيس أمثالها عليها . ولن يضيره شىء إذا لم يعرف قاعدة بناء الأمر من الصحيح ، والمضاعف ، والمثال ، والأجوف ، والناقص ، والمفيف بنوعيه ، والمهموز بأنواعه ، كما لا يضيره شىء إذا لم يعرف أحكام المفعول به بحذافيرها ، إنما يفيده أن يسمع غيره يستعمل اللغة على الوجه الصحيح فيقلده .

هذا هو الحل الحاسم الذى ارتضاه السكاكينى لنحو اللغة العربية . وهو نفسه الذى دعاه إلى أن يعارض سياسة التيسير والتبسيط فى النحو والصرف ، لأنها لا تحل المشكلة من جذورها . وهذا — فى اعتقاده — مر تأليف

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ١٩٤ .
(٢) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٣٧٣ .

لجان التيسير المتكررة ، التابعة لمختلف الهيئات العلمية المعنية بالأمر ، ويرى أن هذه اللجان مهما تتابعت ويسرت ، فإنها ستجد الأمر بعد حين فى حاجة إلى تيسير جديد ، فضلا عما يكون فى التيسير — أحياناً — من شىء من التعسير [1] .

وقد يؤخذ عليه فى هذا المجال صعوبة تطبيق دعوته بشروطها التى اشترطها ، أو أنها — على أقل تقدير — ليست ممكنة التنفيذ فى وقتنا هذا ، ما دامت اللغة الفصحى ليست هى لغة التخاطب ، وما دامت الملكة اللغوية السائدة فى المجتمع — فى البيت والشارع — هى العامية . وإنما يصلح اقتراحه حينما نوفق إلى خلق الأجيال المثقفة من معلمين وغير معلمين يحسنون تكلم العربية الصحيحة ، أو حين يرتفع المستوى الثقافى والفكرى بين الناس ، فندنو لغة التخاطب من لغة القراءة والكتابة ، حينئذ يأخذ الأبناء عن آبائهم ومخالطيهم ومعلميهم اللغة الفصحى فى البيت والشارع والمدرسة ، سماعاً وتقليداً واستعمالاً بدون قواعد ، فتصبح عندهم ملكة وسليقة .

ولعل إحساسه بهذه الفجوة ، أو شدة معارضة المحافظين السلفيين — من المتخصصين — لهذا الأسلوب ، هو الذى جعله يقترح أسلوباً رابعاً وسطاً لتعليم القواعد ، إلى أن تجمع الآراء على الأخذ بالطريق الأمثل فيما بعد . والأسلوب الذى اقترحه يسار فيه من المثال إلى القاعدة إلى الاستعمال . ووضع نماذج لهذا المقترح ، يسير عليها المعلم فى درس كل قاعدة من قواعد اللغة ، على أنه يجدر به التذكر دائماً أن هذه

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٢٤٩ . وخليل السكاكينى : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٧ : ٣٢٦ .

القواعد وسيلة لا غاية ، وأن الغرض منها مساعدة الطالب على اكتساب ملكة اللغة واتقانها فى تعبيره ، وقراءته ، وفهمه ، وكتابته [1] .

ويبدو أنه عدّ هذا الحل الوسط طريقاً يوصلنا بعد حين إلى الاستغناء عن القواعد بجملتها ، فجاء بموضوعات نحوية يمكن أن تطبق فى دروس القراءة ، سواء أُعطى فيها قاعدة أو لم يُعط ، من مثل تحويل عبارات هذه الدروس من المذكر إلى المؤنث ، أو من المتكلم إلى المخاطب أو الغائب ، أو من الحاضر إلى الماضى ، أو من المفرد إلى المثنى أو الجمع ، أو من المثبت إلى المنفى ، أو من المعلوم إلى المجهول ، فيحوّل المعلّم القطعة ، ويقلده طلابه ، ثم يقيسون عليها أشباهها . وقد درج السكاكينى على هذه الطريقة فى كتب القراءة الأربعة التى ألفها للناشئة [2] . وكان يتبع الأسلوب نفسه مع طلابه معلماً ومفتشاً [3] .

كما وجد أبواباً فى النحو والصرف يمكن أن توضع فى جداول أو نماذج ، يكلف الطلاب أن يحفظوها ، ويقيسوا غيرها عليها ، جرياً على الطريقة الفرنسية [4] . وبهذا الأسلوب تحل مشكلات عديدة لازال الطالب

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٢٤١ وما بعدها .

(٢) «الجديد فى القراءة» ، طبع الجزء الأول سنة ١٩٢٤ ، وتتابعت الأجزاء الثلاثة الباقية إلى أن تم طبع الجزء الأخير سنة ١٩٣٣ . ومازال هذا الكتاب فى خدمة التلاميذ فى عدة أقطار عربية ، حتى وصل عدد طبعاته إلى أكثر من اثنى عشرة طبعة .

(٣) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٧٥ .

(٤) من المعروف أن رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) وضع رسالة فى النحو العربى من مئة وثمانين صفحة ، سماها « التحفة المكتبية فى تقريب اللغة =

يعانى منها ، فبدلاً من أن يُعلَّم تفاصيل حالات العدد وأحكامها المختلفة شرحاً — مما يزيدها تعقيداً — وضع لهذا الباب خمسة جداول على النمط التالى :

١ — ولد ، ولدان ، ثلاثة أولاد ، إلى الثلاثين .

٢ — بنت ، بنتان ، ثلاث بنات ، إلى الثلاثين .

٣ — الولد الأول ، الولد الثانى ، إلى الثلاثين .

٤ — البنت الأولى ، البنت الثانية ، إلى الثلاثين .

٥ — الثلاثة الكتب ، ثلاثة الكتب ، الثلاثة كتباً ، الخمسة عشر كتاباً .

ويكلف الطلاب أن يحفظوها ويكرروها ، ويقيسوا غيرها عليها .

وذهب إلى أن هذا الأسلوب يمكن أن يمتد حتى يشمل أبواباً كثيرة من أبواب أحكام اللغة وقوانينها . كتصريف الأفعال على اختلاف أنواعها مع الضمائر ماضياً ومضارعاً وأمراً ، وباب الاشتقاق من كل نوع من أنواع الفعل ، وباب الممنوعات من الصرف [1] .

= العربية) درج فيها على طريقة الجداول. وقد ضمن رسالته هذه خمسة وأربعين جدولا ، وهو — فى الغالب — متأثر بما اطلع عليه من طريقة الفرنسيين . ويعد هذا المؤلف طليعة من طلائع المؤلفات فى عصر النهضة العربية الحديثة ، فى تقريب النحو إلى أذهان الناشئين ؛ انظر : محمد خلف الله أحمد : معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها ، الجزء الأول (مصر فى القرن التاسع عشر) ، ص ٣١ ومابعدها .

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٢٦٥ — ٢٦٨ .

ومن طريف مايذكر فى هذا المجال أنه لم يكتف لتطبيق أسلوب الجداول هذا بالمثل أو المثلين أو أكثر بينها بحوثه ، بل وضع فيما بعد كتاباً مدرسياً فى النحو على هذا المنوال ، سماه « وعليه قِسْ » [1] . ودعا الطلاب إلى أن يقيسوا عليه دون شرح . وأصبحت هذه الطريقة طريقته التى عرف بها . ويمتاز هذا الكتاب بالتركيز وكثرة الشواهد والأمثلة ، وخلوه من الشروح ما أمكن . واحتوى هذا المؤلف جداول فى النعت ، والبيان ، والبدل ، والتوكيد ، وعطف النسق ، والنداء ، والاستغاثة ، والندبة ، والاختصاص ، والتحذير والإغراء ، والعدد ، والاشتغال ، والتنازع . وأنهى المؤلفَ بباب أفعال المدح والذم ، فمد فيه من مزايا اللغة العربية وجود كلمات مجهزة لكل حال ، فيقال لمن يسعل : عمراً وشباباً ، ولمن يتزوج : بالرفاء والبنين ، وللمريض : مسحَ الله ما بك . ولما كان يؤمن بجدوى المران والتدريب ، خلل هذه الأبواب جميعاً تمارين كثيرة ، روحها من روح هذه الجداول وقياساً عليها ، فى حالات متعـــددة ، وعلى تصاريف مختلفة ، يقلبها تقليباً . والحق ان طريقة هذا المؤلف تجذب الطالب إليه ، لسهولتها وبساطتها ، وتزيل النفرة والزهد فى النحو ، وتقرب هذا العلم من نفوس طلابه ، لأنها تجرى على نحوٍ جديد .

وما دام نظر السكاكينى قد امتد إلى النحو ذاته ، ثم إلى طرق تدريسه ، فطبيعى أن يمتد إلى الركن الثالث من المسألة ، وهو طالب اللغة ومتلقيها . فالسكاكينى وإن قال بصعوبة النحو ، وخطأ أساليب تدريسه ، إلا أنه

(١) طبع القدس سنة ١٩٤٣ ، تجده فى المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٢٧١ — ٣٢٢ .

عاد باللائمة على طلاب هذه اللغة ، لأنهم يريدونها شراباً سائغاً يستمرئونه دون جهد ولا نصب . ويعود سر هذا القول إلى أنه رأى إحجاماً شديداً عن اللغة ، بل دعوة إلى الانسلاخ عنها ، فى حين أنه لم ير انفراد اللغة العربية بالصعوبة من بين اللغات جميعاً ، فاللغتان الألمانية والروسية — كما مر بنا — تفوقان العربية صعوبة وعسراً ، ورغم ذلك يقبل أهلهما على تعلمهما ، دون رغبة فى استبدالها ، أو تغيير أوضاعهما ، وهم باقبالهم عليهما يستسهلون صعبهما ، بينما نحن فى إدبارنا عن لغتنا نستصعب سهلها . ولما كان أوائلنا يقبلون عليها نبغ منهم الشعراء والأدباء ، فى حين أن طلاب اليوم ينفرون منها ، لذا ينبغى أن نحببهم فيها ، ونشوقهم إليها ، حتى يجدوا فى كل عسير لذة ، وينبغ منهم الشعراء والأدباء[1] .

والحق أن السكاكينى لم يكن أول ثائر عربى على النحو والصرف . فقد سبقه إلى ذلك ابن مَضاء القرطبى[2] ، الذى يعد أول ثائر على منطق النحاة وعللهم ، لأنهم أخضعوا الظواهر اللغوية لنواميس المنطق ، والجدل ، وأصول الفلسفة . وكانت هذه هى سمة الثقافة الشائعة بين الفرق الإسلامية أيام تدوين النحو ، فى منتصف القرن الثانى الهجرى وأوائل القرن الثالث[3] . فجاء النحويون فى النحو بالعلة والمعلول ، بالعامل والمعمول ، بالفاعل والمنفعل ، بالتقدير والإضمار والتأويل . وإذا عددنا ابن مَضاء أول عالم لغوى ، حديث النظرة ، صائب الرأى فى حقيقة اللغة ونواميسها ، أمكن عده بحق

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ص ٢٥٣ : ٢٥٤ .

(٢) من علماء الأندلس فى الفقه والنحو وعلوم اللغة ، فى القرن السادس الهجرى ، وهو صاحب كتاب «الرد على النحاة» ، نشر وتحقيق دكتور شوقى ضيف ، ط. القاهرة (دار الفكر العربى) [الطبعة الأولى] ١٩٤٧ (١٣٦٦ هـ) .

(٣) عباس حسن : اللغة والنحو بين القديم والحديث ، ص ١١ .

مؤسس المدرسة اللغوية الحديثة المعروفة بالمدرسة الوصفية التقريرية ، التى تنزع إلى درس الواقع اللغوى ، وترصد ظواهره المختلفة ، وتحاول تحرير اللغة وعلومها من أثر الفلسفة ، والتعليل ، والمنطق ، وتصفيته منها .

وانتمى إلى مدرسة ابن مَضاء ابنُ خلدون ، الذى ثار على جعل القواعد غاية فى ذاتها ، وآمن بالشاهد المحتذى به والمقاس على منواله ، دون إقحام القواعد على أذهان الطلاب . ثم كان ما كان من ثورة السكاكينى على النحو ، وأساليب تدريسه ، وإعجابه بالأسلوب الخلدونى ، ودعوته إليه ، وإيمانه بتعلم الظواهر اللغوية على الأسلوب الوصفى التقريرى ، كما فعل فى مؤلفه « وعليه قِسْ » . وهكذا يمكن أن نسلك ابن مضاء وابن خلدون والسكاكينى فى مدرسة لغوية عربية حديثة ، وفى سلسلة نحوية واحدة[1] .

(١) دكتور أنيس فريحة : ذكرى السكاكينى ، ص ٣٨ — ٤٠ .

فى الأصوات والحروف والكتابة

التفت السكاكينى إلى دراسة الأصوات وخصائصها فى اللغة العربية ، منذ وقت بعيد ، حين درس مزايا اللغة العربية . فكان من مزاياها عنده أن أصوات حروفها واضحة صريحة ، فى حين أن كثيراً من حروف اللغات الأوربية صامتة أو خفية . وأرجع وجود الحروف الحلقية — التى لا نجدها إلا فى العربية — إلى البيئة التى كان يحياها العرب ، من بداوة ، وصحراء مفتوحة بهوائها الطلق النقى ، مما خلق حلقاً قوياً قادراً على إخراج هذه الأصوات . وألقى على هذه الحروف أضواء التحليل النفسى ، فأوجد نوعاً من العلاقة بينها وبين أمزجة ناطقيها ، وما يتصفون به من حدة الطبع وشدته ، وما يميلون إليه من صراحة ووضوح . وقد كان مثل هذه الأصوات فى اللغة الاشورية السامية ، لكنها فقدتها منذ أربعة آلاف سنة . كما كانت أشباهها فى بعض اللغات الأوربية ، غير أنها اندثرت وماتت ، وصارت بعض حروف أخرى إلى الهمس والغمغمة . وخلص السكاكينى إلى أن العرب أنفسهم فى دور انحطاطهم وعهد تحضرهم وترفهم ضعفت حلوقهم فصارت تستثقل بعض الأصوات القوية ، فليّنوا القاف وجعلوها همزة ، وحذفوا العين من بعض كلماتهم ، كما يقولون فى العامية « لسّا » بدلا من « لهذه الساعة » ، واستبدلوا بالحركات القصيرة فى بعض الكلمات حركات طويلة ، لقلة همتهم وارتخاء نفوسهم ، فـ « قُمْ » يلفظونها « أُوم » ، و « قُلْ » يلفظونها « أُول [1] » .

---

(١) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٦٨ — ٦٩ .

ومن هذا القبيل ما ذكره من أن صوت الضمة والفتحة أصلح للغناء من صوت الخفض الثقيل ، لسهولتهما . ويرجع كثرة وجود هذه الأصوات ، أو قلتها ، فى لغة دون أخرى إلى أسباب أهمها الإقليم ، فسكان المناطق الباردة يميل لفظهم إلى الضم والخفض ، لأنهم لا يفتحون أفواههم خشية البرد ، أما سكان المناطق الحارة فيميلون فى ألفاظهم إلى الفتح استبراداً ، ولهذا كثر الفتح فى لغة العرب ، وهم سكان قفر حار[1] .

وعالج السكاكينى الأصوات العربية على مستوى الكلمة ، فخص اللغة بأصوات تعطى ألفاظها طواعية وبياناً لأعمق التأثرات ، فإن « لا » أنسب من كل أدوات النفى فى أى لغة ، لأن مدّ الصوت فيها يجعل لها هذه المكانة . ويبرز أهمية الحركة الطويلة فى اللغة العربية ، فواسع ، وغافر ، وكبير ، وعليم ، وصبور ، وشكور ، كلها — بهذا الجرس والصوت — تكتسب أطوع التعبيرات ، وأعمق التأثيرات . أما جرس كلمة « حق » ، بحائها وقافها المشددة العميقة ، فإننا لا نجد لها مثيلا فى لغة أخرى فى الدلالة على معناها ، وذلك عند قائلها وسامعها ، على السواء . ويحق للعرب أن يفاخروا بصوت كلمة « حب » ، لأن رائحة الحب والحزم والثبات عليه تفوح من جرس هذه الكلمة ، ولأنه يخرج من أعماق القلب مع إطباق الشفتين على الباء المشددة . ويرى كذلك فى « مرحباً » أنها قطعة موسيقية يتبادلها الناس ، وهذا من أثر أصوات حروفها : الميم ، والراء ، والحاء ، والباء ، والتنوين ، وحركات الفتح فيها . وانتهى إلى أن ألفاظ اللغة العربية ألفاظ موسيقية وجميلة[2] . والحق أن أقواله هذه لا تخلو من نظرة عاطفية ، وهى — فى الغالب — نتيجة اعتزازه الكبير بلغة قومه .

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ١٤ .
(٢) يوميات خليل السكاكينى ، ص ٧٠ — ٧١ .

ويبدو أن السكاكينى آمن بالنظرية القائلة إن بدء اللغات لم يكن وحياً ولا إلهاماً ولا توقيفاً ، بل كان محاكاة الإنسان للطبيعة فى أصوات رياحها ، ومياهها ، ووحوشها ، فقد مر بنا فى غير هذا الموضع أن أول ما وضع من أسماء الأحداث كان بعضه محكياً عن الأصوات المسموعة من الحيوان أو الجماد . وهناك من الألفاظ فى اللغة ما يدل صوتها على معناها بنفسها ، فبعضها تقصد به حكاية الصوت نحو فحت الأفعى ، وشقّ الثوب ، ومص الشراب ؛ ومنها ما تراعى فيها حكاية الحركة ، لما بين حركة الصوت الممدود أو القوى وحركة المحكى من المطابقة ، من مثل حام الطائر ، وسال الماء ، وهب النائم ، وشبت النار ، أو حكاية صفة الشىء بما توهم فى مقاطع الحروف من الصفات وما فى اقترانها من الهيئات ، نحو رث الثوب ، وجف الغصن ؛ ومن ذلك فى لغة الأطفال « دح » للشىء الحسن ، و « كخ » للشىء القبيح ، لما توهموا فى اقتران الدال والحاء من الحسن ، واقتران الكاف والخاء من القبح[1] .

ونظر إلى أهمية الصوت الخارجى فى العبارة العربية ، وإلى طبقة الصوت فى علوه أو انخفاضه ، وإلى هيئة إطلاقه فى لينه أو خشونته . وقد أعار طبقة الصوت أو هيئته مكانة كبيرة ، إذ لولا الاختلاف فيهما ، لفقد كثير من الكلام دلالته ، وكان أكثره لغواً . ونحن نستعمل « إنّ » للتأكيد ، نحو : إن زيداً قادم ، ولكن إذا لم نجعل النبرة (Stress) على النون فلا تفيد تأكيداً ، ونستعمل « كلا » للزجر ، ولكن إذا لم نلفظها بنبرة فلا تفيد فى الكلام زجراً . ورأى أن هيئة الصوت قد تقلب المعنى إلى ضده ، ومثّل ذلك بمثل الذى حُكم عليه مرة أن يقف أمام الناس ويقول : أيها الناس أنا

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ١ : ٣٢٩ — ٣٣١ و ج ٢ : ٢٠ — ٢١ .

لص فلما وقف قال: أيها الناس أنا لص؟ بهيئة استفهام لا إخبار، فانقلب المعنى من إقرار إلى إنكار. ولعل انقلاب الكلام من معنى إلى ضده هو سبب هذه الأضداد الكثيرة فى اللغة العربية. وجمال الأصوات، وموسيقى الكلام، وحسن الأداء والإرسال، واختلاف النبر ومواقعه، كل هذا يؤثر فى السامع أيما تأثير، حتى يمكن أن يخدع فى القصيدة القبيحة، فيظنها جيدة[1].

وكان السكاكينى على اهتمام بالغ بالأصوات المفردة فى الحروف العربية، فبسط القول فى هذه الحروف بسطاً واسعاً، مما دل على سعة آفاقه فى البحث والمقارنة مع حروف اللغات الأجنبية، قديمها وحديثها[2].

لكنه قبل أن يدخل فى أصوات الحروف العربية ومقارنتها بغيرها حتى يصل إلى ميزانها، أخذ يبحث فى تسميتها. ولفت نظره أن سيبويه والخليل بن أحمد سمياها «الحروف العربية». وقلّب فى المعاجم فوجد أن الحرف من كل شىء هو طرفه وحدّه، وحرف الجبل أعلاه المحدد. ولم يجد فى هذه المعانى ما يوضح تسمية حروف الكتابة بهذا الاسم، ولم يبق له إلا أن يجتهد. فخطر بباله أن كلمة «حرف» مشتقة من كلمة «حفر»، وذلك من باب الاشتقاق الكبير الذى يوضح العلاقة بين معنيين متناسبين فى اللفظ دون ترتيب حروفهما. ورأى أن تقديم حرف على آخر فى العربية شىء مألوف، من مثل جَبَذَ وجَذَبَ، حَمِدَ ومَدَحَ، وغير ذلك كثير. ويؤيد رأيه أن الكتابة فى أول عهدها كانت حفراً فى الصخور. وعلى ذلك فقد رأى أن كل ما يكتب حتى الضمة، والفتحة، والكسرة، والسكون،

(١) خليل السكاكينى: مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٨: ٣١٥ — ٣١٦.
(٢) دكتور عبد الرحمن عبد الوهاب ياغى: حياة الأدب الفلسطينى الحديث حتى النكبة، ص ٤٢٤.

والوصلة، والمدة، والشدة، حروف، لأنها تدل على أصوات. وانتهى إلى مخالفته سيبويه والخليل فى هذه التسمية، مقترحاً تسميتها «النقوش العربية»[1].

وتكشف للسكاكينى أن الحروف الهجائية بمامة تاريخاً. فراح يدرس تاريخها وتطورها منذ نشأتها على مر العصور والأزمان. ورأى أن الخط قبل أن يصل إلى صورته الحالية، قطع أربعة أدوار. أولها دور التصوير الذاتى، بمعنى أنهم إذا أرادوا أن يكتبوا كلمة أسد صوروا أسداً، أو كلمة وردة، صوروا وردة. وثانيها دور التصوير الرمزى، حين اصطلحوا فيه على اتخاذ رموز للمعانى التى لا يمكن تصويرها. كأن يرمز عن المحبة بالحمامة، وعن البغض بالحية. ثم جاء دور ثالث وهو الدور المقطعى الذى تدل فيه الصورة على أول مقطع من اسمها، فأصبحت صورة الحصان لا تدل على حصان كما كان فى الدور الأول، وإنما دلت على الصوت الأول من اسمها المشتمل على الحرف الأول وحركته معاً، وهو مقطع مؤلف من حاء مكسورة، وكذلك صورة الغراب استعملت فى هذا الدور للدلالة على مقطع مؤلف من غين مضمومة. وهذا ما حدا به أن يظن فى كتابة الهمزة على الألف والواو والياء، فتفتح مع الألف بدون وجود فتحة، وتضم مع الواو بدون وجود ضمة، وتكسر مع الياء بدون وجود كسرة، أنها من الأشكال المقطعية التى تعود إلى هذا الدور. وآخر هذه الأدوار هو الدور الهجائى، الذى استعملت فيه المقاطع حروفاً مستقلة، فصورة الحصان التى كانت تدل على حاء مكسورة فى الدور المقطعى استعملت هنا للدلالة على الحاء الساكنة. وهذا الدور هو أقل الأدوار اشكالاً وأسهلها استعمالاً. وتصور أنهم إذا أرادوا كتابة كلمة «حَسَن» مثلا، رسموا ثلاث صور: الحصان، والسيف، والنحلة، فالحصان حاء، والسيف سين، والنحلة نون.

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى، ج ٢: ١٥١.

ويلبه السكاكيني إلى أن الفضل في وضع الحروف الهجائية يرجع إلى الفينيقيين ، الذين يعدون واضعي أهم أسباب الحضارة لأكثر أمم الأرض .

ولا تزال الحروف العبرية والسريانية تحمل أسماء صورها القديمة ، فاسم الباء فيها « بايت » ومعناها بيت ، لأن صورة هذا الحرف كانت تشبه البيت . واسم التاء فيها « تاو » ومعناه هذه السمة التي ترسم بها أفخاذ الإبل والخيل ، لأن صورة هذا الحرف في الفينيقية ، وفي اللغات التي أخذت حروفها عنها كاليونانية والإفرنجية ، هي على هيئة صليب . ومما يستحق النظر أنه ورد في العربية لفظ « تواه » ، بمعنى سمة في الفخذ أو العنق . واسم الجيم في العبرية « جيمل » ، وفي السريانية « جومل » ، ومعناها جمل ، لأن صورة هذا الحرف في الخط الفينيقي تشبه رأس الجمل مع عنقه . وهكذا سائر الحروف .

ورأى أيضاً أن الحروف العربية مثل غيرها مستمدة من الحروف الفينيقية ، بدليل أن هذه الحروف ما زالت تحمل إلى اليوم أسماءها القديمة ، بعضها بلفظه الأصلي ، وبعضها بتغيير قليل . يستثنى من ذلك حرف العين ، والسكون ، والشدة ، والمدة ، والهمزة ، والوصلة ، والتنوين ، والحركات القصيرة من ضمة ، وفتحة ، وخفضة ، لأنها عربية . كما أن هناك تشابهاً بين الحروف العربية وتلك الحروف الفينيقية ، رغم تباعد الأزمان ، وتطور أشكال حروفنا مع تقادم العهد وتوالي السنين .

ويعجب السكاكيني كيف أمكن اللغات اليونانية والإفرنجية أن تأخذ الحروف الفينيقية التي تدل صورها على أول أصوات أسمائها . فإذا فهمنا أن صورة بيت تدل على الصوت الأول في لفظة « بيت » الفينيقية ، ولفظة « بايت » العبرية والسريانية ، ولفظة « بيت » العربية ؛ فكيف يمكن في القديم إذن أن تدل صورة البيت على صوت (ب) في اللغات الأخرى ،

التي يبتدئ فيها اسم البيت بصوت آخر ؟ وينتهي إلى أن العلاقة بين صور الحروف اليونانية والإفرنجية وبين أول أصوات أسمائها ، مفقودة .

وكانت العلاقة بين الأصوات وبين الصور والنقوش الموضوعة لها معقولة وواضحة في أدوارها الأولى حتى أول الدور الهجائي ، الأمر الذي جعل الكتابة حينئذ مقروءة من تلقاء نفسها ، لأن الباء كانت بيتاً ، والجيم رأس جمل ، والكاف كفاً الخ . . . ولا تزال إلى اليوم نقول صرر الكلمة أي كتبها . ولكن العلاقة بين الأصوات وبين صورها ونقوشها أخذت تختفي شيئاً فشيئاً منذ نشأة الدور الهجائي ، فاختصرت الصور إلى أصغرها ، ثم ربعها ، ثم إلى أثر ضئيل منها ، ميلا للسهولة واليسر . ووصل الأمر إلى أن أصبحت الحروف — في الغالب — رموزاً لا علاقة بينها وبين أصواتها ، وأصبحت دلالة النقش على صوته دلالة اعتباطية ، ولم يعد يدل هذا النقش أو الرمز على شيء في الخارج . وصارت هذه الحروف لا تؤخذ إلا بالدرس ، وانقسم الناس بسبب ذلك إلى أميين ومتعلمين ، كما أصبح تعلم الحروف الهجائية — في لغات الأرض جميعاً — ليس أمراً سهلا .

على أن السكاكيني بالتأمل الفاحص ، والنظر الدقيق ، لم يعدم شيئاً من العلاقة بين النقش وصوته في كثير من الحروف العربية . فحاول أن يربط بين شكل الفم عند نطق الصوت وبين الحرف الدال عليه . ولمح أن الألف والواو والياء ، من أدل الحروف على شكل الفم عند التلفظ بأصواتها ، مما يسهل قراءتها من تلقاء نفسها . فالألف خط عمودي ، لأن فتحة الفم عمودية عند إخراج صوتها . وشكل الواو لا يخرج عن أنه دائرة كشكل الفم المضموم عند قراءة هذا الصوت ، وهو يشبه حرف (o) الافرنجي في الخط . إلا أنه زيد له ذنب من أسفله ، طُوِّل مع الزمن حسب عادة العرب من مشق الحروف ومطها في أواخرها عند الإسراع في الكتابة ، وهو

شبيه بما زيد لحرف (o) من ذيل في رأسه . أما الياء فهي على صورة دائرة مستطيلة عرضاً شبيهة بشكل الفم المستطيل عرضاً ، عند إخراج صوتها ، ثم أضيف لها زيادات كفتحة من أعلى للسرعة في الكتابة ، ونقطتين من تحتها للتزيين ، أو للتمييز عن غيرها .

ومن أقوى الحروف التصويرية الواضحة في العربية ، هو حرف العين ، الذي كان في أصله دائرة تشبه حاسة البصر ، والذي لا تزال تكتبه على هذه الشاكلة ، إلا إذا وقع طرفاً زدنا له نصف دائرة مستطيلة على هيئة نصف دائرة الوجه ، وكأنها قرينة على أن المقصود به هو العين ذاتها ، للتدليل على الصوت الأول من اسمها . ومن ذلك حرف السين ، فإنه يشبه الأسنان ، وصوته هو الصوت الأول في كلمة سن [1] .

وهناك حروف أخرى لا تبعد كثيراً عن شكل الفم عند التلفظ بها . فحرف الباء ، والتاء ، والثاء ، والنون ، كلها تحولت عن شكلها الفينيقي إلى شكلها العربي المشابه للفم المطبق ، وهو قريب من هذا الشكل عند التلفظ بأصواتها ، لولا أن الفم ينفرج قليلا جداً عند خروج الصوت . وكان التمييز بين هـــذه الحروف بما يقتضيه المعنى ، ثم ميز بينها بالنقط فيما بعد . واجتهد السكاكيني في أسباب مواضع النقط وعدده ، فنقطة الباء من تحتها إشارة إلى حركة الشفة السفلى عند التصويت بها . وللتاء نقطتان من فوقها إما لمجرد التمييز عن غيرها ، وإما إشارة إلى ظهور سنّين عند التلفظ بها ، ويؤيد هذا القول أن النقط نفسه يشبه الأسنان . والثاء لها ثلاث نقط إشارة إلى ظهور طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى . والنون تشبه غار الفم ، ونقطتها في وسطها تشير إلى التصاق طرف اللسان بأعلى الحنك

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ١٧١ — ١٧٥ .

عند إخراج صوتها ، وهي تشبه النون السامرية . ويعجب من الاصطلاح الأخير في كتابة النون بهذا الشكل (ن) ، لأنه ردها إلى أصلها كما كانت .

ومن الحروف ما نقلت عن اللغة الفينيقية ، ولكن جعل أعلاها أسفلها . مثل الكاف فهي في الفينيقية هكذا (K) ، فأصبحت في العربية هكذا (ك) . وأما الافرنج فقد جعلوا يمين هذا الحرف يساره ، وأعلاه أسفله ، فأصبح عندهم هكذا (K) .

ولم يقف تغير الحروف العربية عند هذا الحد ، فمنها ما تغير من جهة اليسار إلى اليمين ، مثل اللام ، فهي في الفينيقية واليونانية القديمة على هذه الشاكلة (L) ، وفقاً لصورتها الحالية في اللغات الأوربية . أما العربية فكتبتها هكذا (ل) .

وحروف تغيرت من الوضع العمودي إلى الوضع الأفقي ، مثل الياء ، فإنها تشبه الياء في اللغة اليونانية القديمة ، التي كانوا يكتبونها (Y) ، وقلبت في العربية إلى (ى) . وأما الإفرنج فجعلوها عمودية هكذا (y) .

والسكاكيني وهو يحاول أن يرد الحروف العربية إلى أصولها الفينيقية ، يرجع هذه التغييرات والتطورات التي حدثت فيها إلى تسهيل الكتابة العربية ، وملاءمة بدايتها من الجهة اليمنى .

ومن نظره الثاقب في دراسة الحروف العربية ، ما تبين له أنها كانت — في تاريخها القديم — منفصلة ، ثم تطورت ، فاتصل بعضها ببعض مع الأيام ؛ باستثناء حرف الألف ، والواو ، والدال ، والذال ، والراء ، والزاي ، فإنها لا تزال تكتب منفصلة عما بعدها إلى اليوم . ورأى أن سنة التطور في الكتابة هي وصل الحروف المنفصلة ، لأن الكاتب لا يميل — بطبيعته — في الكتابة إلى رفع القلم عن القرطاس ، ولو حدث أن فصلنا هذه الحروف اليوم ، فلابد

— بالتطور — أن تتصل غداً . وبلغ الأمر من قوة الوصل فى العربية إلى وصل الكلمتين والثلاث والأربع بعضها ببعض ، من مثل (القلم) ، (بالقلم) ، (فبالقلم) . وكأن قوله بطبيعة تطور الحروف العربية من الفصل إلى الوصل رد حاسم على من دعا إلى تفريقها وتيسير كتابتها بالاقتصار على صورة واحدة منها ، هى الحروف المفصلة ، تخفيفاً من عددها ، وتسهيلا لوضع علامات الضبط عليها . وهو كذلك رد حاسم على من دعا إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، بحجة أن الأولى منفصلة كلها ، والثانية متصلة أكثرها . فى حين لو نظرنا إلى الحروف اللاتينية نفسها لوجدناها تأخذ طبيعتها الحرة فى الكتابة ، فتتشابك وياخذ بعضها برقاب بعض ، وإن كانت هى منفصلة حقاً فى الطباعة [1] .

وكانت حروفنا فى أول أمرها مهملة دون تنقيط ، ثم أزيلت عجمتها وإبهامها بالنقط . وعلى هذا فقد كانت الحروف العربية فى أصلها — دون تنقيط — تسعة عشر أو ثمانية عشر شكلا ، لا تسعة وعشرين أو ثمانية وعشرين كما هى الآن . وعولجت قلة هذه الحروف باستخدام الشكل الواحد فى الحرف لعدة أغراض ، فاستخدمت الألف همزة وحركة طويلة وحركة ممدودة . واستخدمت الواو والياء حركتين طويلتين وحركتين ممدودتين وحرفين . واستخدمت الألف والواو والياء حركات قصيرة بدلا من الضمة والفتحة والكسرة ، ويرجح أن الواو فى « أولئك » وفى « عمرو » من آثار ذلك العهـــد . ولكنه يعجب من الرجوع إلى استعمال الحركات القصيرة بدلا من الطويلة فى مثل إسحق ، وإبرهيم ، والرحمن ، وسليمن ، والسموات ، والملئكة ، وغير ذلك . واستخدم شكل الباء للباء والثاء والتاء وللباء إذا وقعت أولا أو وسطاً ، واستخدم شكل الجيم للجيم

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٢٢٧ / ٣٢٨ .

والحاء والخاء ، وشكل السين للسين والشين ، وشكل الصاد للصاد والضاد ، وشكل الطاء للطاء والظاء ، وشكل العين للعين والغين ، وشكل الفاء للفاء والقاف ، وكان كتابتهم فى أول عهدها كانت أشبه بما يسمى اليوم « الخط المختزل » [1] .

ورأى السكاكينى أن دراسة مخارج الحروف وصفاتها وقسمتها إلى طوائف كالحروف المهموسة ، والمجهورة ، والشديدة ، والرخوة ، والمتوسطة ، والمطبقة ، والمنفتحة ، والمستعلية ، والمنخفضة ، شئ تكفل به عند العرب علم الصرف والتجويد . ولا غنى عن هذه المباحث لمن يتولى تدريس اللغة العربية فى المرحلة الابتدائية ، ليراعى النطق السليم ، ويعلم الناشئة أصوات اللغة المفردة والمركبة على الوجه الصحيح .

وامتد اهتمامه إلى اللكنة ، أو ما يمكن أن نسميه « اللحن الصوتى » ، وبين عامل التأثير الأجنبى فى الأصوات العربية ، فحين خص أصوات الحروف الحلقية بالعرب ، بين صعوبة نطق غيرهم ببعضها ، مما دعاهم إلى إسقاط هذه الأصوات وإحلالهم أصواتاً أخرى غريبة محلها ، بمعنى أنهم يعجمونها على غير أصواتها الأصيلة . ويصدق مثل هذا على العرب أنفسهم ، حين ينشئون مع العجم ، أو حين يجدون فى الكلمات الأعجمية حرفاً غير مألوف فى لغتهم فيفرغونه فى قالب عربى ، ويعربونه إلى حرف قريب منه فى المخرج . ورأى أن التعجيم هذا كان سبباً من أسباب وجود الألفاظ المترادفة فى اللغة العربية ، من أثر اختلاط الأعاجم بالعرب . فكلمة « أعطى » عربية بعينها وطائها ، ولكن الأعاجم نطقوها « آتى » ، بعد أن أسقطوا العين ، ورققوا الطاء ، ولم تلبث هذه الكلمة الجديدة ان أصبحت

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٤٤ — ٤٨ .

عربية كأنها مرادفة لكلمة أعطى ، والحق أنهما كلمة واحدة . ومثل على إبدال العين همزة بأمثلة مختلفة نحو أبدع وأبدأ ، ورعى ورأى . ومن الحروف الحلقية التى يستصعب الأعاجم لفظها على الوجه الصحيح « الحاء » ، فحولوها تارة إلى همزة نحو حان وآن ، وتارة إلى ألف نحو فرح وفرى ، وتارة إلى ياء نحو جلح وجلى ، وتارة إلى هاء نحو المدح والمده . كما جعلوا الخاء كافاً كقولهم فى مخاخة العظم مكاكته .

وتشارك حروفَ الحلق فى الصعوبة عند الأعاجم الحروفُ المفخمة ، وهى الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والقاف ، فيميلون إلى ترقيقها ، ويلفظون الصاد — أحياناً عن غير وعى وانتباه — سيناً نحو صك الباب وسكه ، أو زاياً نحو بصق وبزق . ويجعلون الضاد دالا نحو نهض ونهد ، أو ناء نحو حض وحث . ويجعلون الظاء جيما نحو نلظ ونلج . ويجعلون القاف كافاً مثل قسط وكسط ، أو جيما نحو تلوق وتلوج ، أو همزة نحو طرق وطرأ ، أو ألفاً نحو المساء المصفق والمصفى .

كما لمح من أسباب المترادفات فى العربية التناسب فى مخارج بعض الحروف وتقاربها ، نحو نعق ونهق ، واهتم واغتم ، وطمع وطمح ، وأغن وأخن [1] .

وتعمق فى دراسة الحروف العربية ذاتها ، من ناحية عددها . فبين كيف اختلف الصرفيون فى عددها ، من بين قائل إنها ثمانية وعشرون حرفاً ، وقائل إنها تسعة وعشرون . ورغم هذا الاختلاف فقد انتهى إلى تقسيم أنواع هذه الحروف إلى أربعة أقسام وهى : حروف مفردة ، وحروف

(١) خليل السكاكينى : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٨ : ١٢٥ — ١٢٧ .

مركبة ، وحركات ، وضوابط . وحصر عددها بجميع أنواعها وأشكالها سبعة وأربعين حرفاً .

وينقد السكاكينى الصرفيين فى بعض نقاط تستحق النظر والتقدير . وقد مرّ بنا كيف أراد أن يصحح نظرهم إلى حرف الألف ، والواو ، والياء ، حين عدّوها حروفاً . والحق عنده أن الألف ليست إلا حركة . وأما الواو والياء فهما مشتركان بين الحرف والحركة ، وضرب على ذلك الأمثلة الصوتية ، فالواو فى « ثَوْب » حرف ، وفى « عُود » حركة . ويقابل الأول عند الافرنج حرف (W) ، والثانى حرف (O) . والياء فى « بَيت » حرف ، وفى « عِيد » حركة . ويرى مثل هذا الازدواج فى الأصوات فى الحروف الافرنجية ، فإن (y) حرف فى كلمة (yes) ، وحركة فى كلمة (truly) . وكذلك (W) هى حرف فى (was) ، وحركة فى (saw) .

وحصر أنواع الألف فى الكتابة ، غير شكلها مع اللام ، فهى قائمة مثل الألف فى عصا ، وأفقية مثل الألف فى مآكل ، وياء بدون نقطتين مثل الألف فى فتى ، وألف صغيرة فوق الحرف لا بعده مثل الألف فى (الله) و (ذلك) . وينقد الذين يحصون تسمية الألف فى مثل فتى ألفاً مقصورة ، لأن الألف المقصورة هى الألف على كل أشكالها الأربعة السابقة ، وسميت كذلك لأنها أقصر فى اللفظ من الألف الممدودة فى مثل سماء وحمراء ومادة .

واسترعى نظره اختلاف ترتيب الحروف ، فتوجه إلى ترتيبين منها . أولهما ترتيب « نصر بن عاصم الليثى » و « يحيى بن يعمر العدوانى » ، فى زمن « عبد الملك بن مروان » ، وهو الترتيب الشائع فى أيامنا هذه . وقد ابتدأ هذا الترتيب بالألف ثم الباء ، لأنهما أول الحروف فى « أبجد » ، ووضعت

الألف ذات الحركة فى لام ألف فيما بعد . أما الترتيب الآخر فهو ترتيب سيبويه الذى ابتدأ بالهمزة منفردة ، ووضع الألف وحدها بين الحركات الطويلة فى آخر الحروف . ومن خلال مناقشته هذين الترتيبين يخلص إلى أن الحرف الأول من الأبجدية هو الهمزة لا الألف ، سواء وضعت على ألف أو بدونها ، وذلك لأن الألف لا تقع ابتداء[1] .

وبعد دراسته الوافية للحروف العربية بتاريخها وتطورها ، سار على نهج مقارنتها وأصواتها بغيرها من حروف اللغات الأخرى ، حتى انتهى إلى صفات حروفنا ومزاياها العديدة ، وذلك كما انتهى من قبل إلى مزايا اللغة العربية وخصائصها . ورأى من مزاياها أنها تكتب وتقرأ من اليمين إلى اليسار ، كما هو الحال فى السريانية والعبرية وسائر اللغات التى اقتبست الحروف العربية . أما الحروف الافرنجية فإنها تكتب من اليسار إلى اليمين ، فى حين أن الهيروغلوفية ، وإن كانت تبدأ من اليمين فى أول سطر ، إلا أنها تبدأ فى السطر التالى من حيث انتهى سابقه . ويستشهد على ذلك ببيتين طريفين :

لصاحب الاحباس برذونة ∴ بعيدة العهـــد من الربطِ
تمشى إلى خلف إذا ما مشت ∴ كأنها تكتب بالقبطى

أما الحروف الصينية فإنها تكتب من أعلى إلى أسفل .

ويبدو لأول وهلة أن هذه الميزة للحروف العربية غير ذات بال ، ولكننا

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ٢٣ : ٣٢ - ٣٦ .

نجدها قيمة حين نرى أن الابتداء فى الحروف الافرنجية من اليسار إلى اليمين يخالف السليقة والطبع ، ذلك أن الافرنج أنفسهم يقومون بشتى أعمالهم ومختلف أمورهم من اليمين إلى اليسار ، من مثل تدرج منازل الأعداد عندهم ، وإن كانوا يقرءونها بالعكس . والرسام أو النقاش إذا بدأ عمله دون خيطة أو قصد ، بدأه من اليمين إلى اليسار . والأيمن يتناول بالسليقة الأشياء من أمامه من جهة اليمين . والناس فى جمهورهم الأعظم يعملون باليد اليمنى دون اليسرى . وعلى هذا فإن اصطلاح العرب أقرب إلى الطبع وأسهل تناولا . فإذا استسهل الافرنج حروفهم فى الكتابة من الجهة اليسرى بحكم العادة والتعليم ، فإننا نستسهل حروفنا — بالإضافة إلى ذلك — بحكم الفطرة والسليقة .

وثانى مزايا الحروف العربية أنها قليلة الأشكال بالمقابلة مع الحروف اللاتينية ، مع أنها أكثر عدداً . فالحروف العربية تقسم إلى كبيرة وصغيرة ، الصغيرة منها مقتطعة من الكبيرة ، وتعلم التلميذ للحروف الكبيرة يسهّل عليه معرفة النوع الآخر ، فضلا عن وجود حروف ليس لها إلا صورة واحدة ، وهى الألف ، والواو ، والدال ، والذال ، والراء ، والزاى ، والطاء ، والظاء . فكأن النوعين نوع واحد ، لافرق فى ذلك بين حروف الكتابة وحروف الطباعة . وهذه حسنة من حسنات الأبجدية العربية . أما الحروف اللاتينية فتنقسم إلى حروف طباعة وحروف كتابة . وكل نوع منها ، فيه حروف كبيرة وأخرى صغيرة ، لارابط بينها ولا صلة فى الشكل . وبهذا تكون حروفهم أضعافاً مضاعفة .

وثالث هـــذه المزايا أنه إذا تجاور حرفان متجانسان أو متقاربان فى المخرج فى كلمة واحدة ، وكان الأول ساكناً والثانى متحركاً ،

كتب الحرفان حرفاً واحداً فوقه شدّة ، للاختصار . وقد نستغنى عن هذه الشدة لأن القرينة تدل عليها . وأما الافرنج فيدغمون الحروف المتجانسة أو المتقاربة بتكرار الحرف إذا كان من جنس الحرف الذى قبله ، أو باللفظ إذا كان قريباً منه . ولا بدّ من التكرار لأنه ليس عندهم علامة للتشديد أو الإدغام .

ورابع هذه المزايا أن الخط العربى ينهى الكلمة بالحرف الكبير من الأبجدية إيذاناً بنهايتها . وأما اللغات الأوربية فتستخدم الحرف الكبير لغير هذا الغرض ، من مثل بداية الكلام أو بداية بعض الكلمات المعينة ، وليس هناك دليل على نهاية الكلمة إلا فصلها عن الكلمة التى تليها بفراغ على القرطاس .

وتتعلق بهذه الميزة ميزة أخرى ، وهى أن الكلمة فى اللغة العربية تأخذ فسحة أصغر من الفسحة التى تأخذها الكلمة الافرنجية ، لأن حروفنا أصغر حجماً وأدق شكلاً ، لاسيما الحروف الابتدائية والوسطى ، ولاتصال حروفنا بعضها ببعض إلا حروفاً قليلة ، أما حروفهم فكلها منفصلة ، يضاف إلى ذلك أن الحركات القصيرة عندنا من ضمة وفتحة وكسرة ، والضوابط — السكنة والوصلة والمدة والشدة — ، والتنوينات على اختلاف أنواعها ، كل هذا لايكتب فى صلب الكلمة ، وإنما يكتب فوق الحرف أو تحته ، ناهيك عن احتمال الاستغناء عنها لأن لها مواضع معلومة مطردة . بخلاف اللغات الأوربية ، التى لابد فيها من رسم حركاتها فى صلب كلماتها ، ذلك لأنها لاتجرى على قياس مطرد ، فكلمة لندن مثلا نكتبها بأربعة حروف ، فى حين أنها تكتب فى الانكليزية بستة حروف ، فالطابع العربى يصف أربع كلمات قبل أن يصف غيره فى الانكليزية كلمة (Thought) ، أو كلمة (Throughout) ، أو كلمة (Beautiful) .

وآمن السكاكينى بأن الشأن فى الكتابة ليس فى اختصارها ، بل فى ضبطها وصحتها . وقاده هذا المبدأ إلى الاعتقاد بأن الحروف العربية من هذه الجهة أتمّ من الحروف الأوربية ، وضرب لذلك أدقّ الأمثلة ، واستشهد بقول ابن فارس من أن العرب انفردت « بالهمز فى عرض الكلام مثل سأل وقرأ ، ولا يكون فى شىء من اللغات إلا ابتداء » . ثم أضاف السكاكينى إلى هذا القول ان همزة الافرنج الابتدائية لايوجد لها صورة بين حروفهم ، فهمزة القطع عندهم واردة فى كلماتهم المبدوءة بحركة مثل (on) أو (in) أو (at) أو (it) ، فيلفظونها ولا يكتبونها . وكان الألزم أن يضعوا قبل كل حركة فى هذه الكلمات وأشباهها حرفاً يدل على الهمزة . وإذا وقعت فى درج الكلام مثل (Put it on) وصلوها ، دون علامة للوصل . أما العربيـــة فالهمزة فيها واضحة نطقاً وكتابة . فكلمة (on) مثلاً نكتبها « أن » بهمزة وضمة ونون .

وكما رأى فى الكتابة الأوربية قصوراً من ناحية الاختصار المخل ، كلفظ الهمز دون تصويره فى كتابتهم ، رأى قصوراً من ناحية أخرى ، وهو تلك الحروف الكثيرة التى يكتبونها ولا يقرءونها ، بحجة أنها كانت فى وقت ما منطوقة . وخصّ بذلك اللغة الإنكليزية . وكأنهم لكثرة هذه الحروف عندهم يقرءون على طريقة « انظر وقل » « Look and Say » ، بمعنى أنهم يرون الكلمة عند القراءة صورة مجملة ، دون التمعن فى كل حرف من حروفها . ورغم أن اللغة بعامة لاتؤخذ قراءة الكلمات فيها بالنظر الدقيق ونهجّى الحروف ، بل تؤخذ بالتقليد وبالنظر المجمل لصورها المنطبقة على صورها الكلية فى الذهن ، إلا أن هذا لايمنى أن الكتابة المضبوطة أسهل تناولاً وأضمن للصحة عند القراءة والإملاء . وسجّل محاولة الأمريكيين بتر هذه الأعضاء الأثرية من جسم الكلمات الإنكليزية ، ولكنهم — فى اعتقاده — لم يصلوا حدّ التوفيق بعد . واعترف بوجود

بعض كلمات عربية تكتب فيها بعض الحروف ولا تقرأ ، أو تقرأ ولا تكتب ، لكنها قليلة لا يعتدّ بها .

ورأى أن الأصل فى الخط العربى أن يكون مطابقاً للفظ ، فتكتب كل كلمة كما ينطق بها ، وينطق بها كما تكتب . ومرد ذلك إلى أن لكل حرف فى اللغة العربية صوتاً خاصاً به لايتغير ، كما أن لكل صوت حرفاً خاصاً به يدل عليه . بخلاف ما فى بعض اللغات الأوربية من تصوير الصوت الواحد بصور عديدة ، فصوت الكاف يصور عندهم تارة بحرف K ، وتارة بحرف Q ، وتارة بحرف C ، وتارة بحرف X ممزوجاً بحرف S . كما يحمل للحرف الواحد أصوات عديدة من مثل حرف S ، فإنه ينطق به سيناً مرققة فى Sit ، وشيناً فى Sure ، وزاياً فى rise ، وصاداً — سيناً مفخمة — فى Saw .

والحق أن الصوت فى العربية قد ينقلب إلى صوت غيره ، ولكننا تبعاً لذلك لابد أن نغير الحرف الدال عليه ، فالسين قد تقلب زاياً فى مثل غرس وغرز ، أو صاداً فى مثل سكّ الباب وصكّه ، أو شيناً فى مثل سَمْت العاطس وشَمْته . وواضح هنا أن كل كلمة من هذه الكلمات كتبت كما لفظ بها . وكأننا جعلنا الكلمة كلمتين ، ولم نجعل الحرف الواحد ذا صوتين أو أكثر . وخلص إلى أن الافرنج يكتبون شيئاً ، ويقرءون شيئاً آخر ، على طريقة كَيسان الذى كان يستملى أبا عبيدة النحوى ، إذ كان يكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب[1] .

وعدّ من مزايا الحروف العربية أن للصوت المفخم فيها صورة خاصة به ،

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٣٢٧ .

وللصوت الرقيق صورة أخرى ، مثل السين والصاد ، والتاء والطاء ، والدال والضاد ، والذال والظاء ، والكاف والقاف . بخلاف اللغات الأوربية ففى بعضها حركات مفخمة وحركات رقيقة توضع بعد الحرف فيفخم أو يرقق كما فى اللغة الروسية . وأما فى غيرها فلا يوجد إلا حرف واحد ، يستعمل تارة مفخماً وتارة رقيقاً ، بدون ضابط ، فحرف S فى الإنكليزية مثلا رقيق فى Sow ، ومفخم فى Saw ، وحرف d رقيق فى do ، ومفخم فى doll ، وحرف L رقيق فى Low ، ومفخم فى Law ، وحرف C رقيق فى Cold ، ومفخم فى Called ، وحرف t رقيق فى tell ، ومفخم فى tall .

وكره السكاكينى أن يقيه العرب بلغتهم على أصحاب اللغات الأخرى ، وأن يتحدوهم دون سند من الحقيقة . فقد أنكر اختصاص اللغة العربية بصوت الضاد ، دون غيرها من اللغات ، وأنكر بالتالى أن يكون العرب — هم وحدهم — الناطقين بهذا الصوت ، وأن لغتهم هى « لغة الضاد » ، وفقاً للقول الشائع المشهور . ذلك لأنه لمس هذا الصوت فى اللغة الإنكليزية ، كما فى كلمة (doll) . ويبدو أنه فات السكاكينى أن صوت الضاد القديمة ، التى نسبت إلى العرب وافتخروا بها ، والتى وصفها سيبويه فى « الكتاب » ، ووصفها غيره من اللغويين كابن جنّى ، هى غير هذه الضاد التى ننطقها نحن اليوم ، وأن تلك الضاد قد طواها التاريخ فى تضاعيف الزمن ، وأصبحت حلقة مفقودة فى الدراسات الصوتية فى اللغة العربية . إلا أن بعض الباحثين المحدثين يميل إلى الأخذ بأن ضاد العراقيين فى لهجتهم العامية ، وكذلك أهل نجد والخليج العربى ، هى أقرب ما يكون إلى صوت الضاد القديمة .

ووجد فى اللغة العربية صوراً معلومة للحركات الطويلة ، وصوراً أخرى للحركات القصيرة . لكنه لم يجد فى بعض اللغات الأخرى قياساً مطرداً لمثل هذه الحركات ، فقد تضاعف الحركة فى اللغة الإنكليزية بقصد

تطويلها مثل Food ، وتقصّر — رغم مضاعفتها — فى Foot . والحركة الواحدة مثل a ، يلفظ بها كصوت (O) فى Tall ، فى حين أنها تنطق على لفظها فى (Shall) .

وخالطت الحروفُ العربية روحَ السكاكينى ، حتى رأى فيها الجمال ذاته ، لأنها تتألف من كل الأشكال ، ففيها الخطوط المنحنية ، والمستقيمة ، والمستديرة ، والبيضية ، والهرمية ، والمجوفة ، والمحدّبة ، والقوسية ، والمسننة ، والطويلة ، والقصيرة ، والنازلة ، والصاعدة ، متصلة أو منفصلة ، فوقها أو تحتها من النقط ، والحركات ، والشدّات ، والتنوينات ، والمدّات ، وهمزات الوصل والقطع ، مما لا تشبهها فيه لغة أخرى . وقديماً كان العرب يلونون كتاباتهم بألوان مختلفة ، الأسود للحرف ، والأحمر للشكل ، والأصفر للهمزات ، والأخضر لألفات الوصل ، مما يخالها الرائى قطع الرياض أو الفسيفساء . ويبدو أنهم قد لاحظوا هذه الميزة لحروفهم فأحلوها من الفنون الجميلة محل التصوير والنقش ، واستخدموها للزينة والزخارف ، فزينوا بها أبنيتهم وأدواتهم وكتبهم النفيسة . ودهش الغرب فى العصور الوسطى من هذه الرسوم والزخارف حتى أخذوها وزينوا بها كنائسهم . كما استخدم الشعراء العرب بعض حروفهم فى الغَزَل على سبيل التشبيه ، فالقامة الهيفاء ألف ، وعطفة الصدغ همزة ، والعارض لام ، والحاجب نون ، والطرة المصففة من الشعر سين ، والخال فى وجه الحسناء نقطة سوداء على صفحة بيضاء .

وأنهى السكاكينى هذا المبحث القيم بآخر ميزة للحروف العربية ، وهى وإن كانت شكلية ، إلا أنها تبين الفرق بين هيئة الكتابة العربية والكتابة الأوربية ، التى يكتب فيها جزء من الكلمة فى آخر السطر ، وباقيها المكمل لها فى أول السطر الذى يليه . أما العربية فقد كُره فيها هذا الصنيع ، حتى

عدت الواو جزءاً من الكلمة التى تليها فلم تفصل عنها . وكُره كذلك فصل المضاف عن المضاف إليه[1] .

ولم تحل هذه المزايا والخصائص دون نظرته إلى الحروف نظرة فاحصة عادلة . ولم يسدل كلفه بهذه الحروف الغشاوة على عينيه فلا يرى مشكلاتها . فهو من وجهة أخرى رأى أن ستة حروف منها وهى الألف ، والواو ، والدال ، والذال ، والراء ، والزاى ، تتصل بما قبلها وتنفصل عما بعدها ، فى حين أن بقيتها تتصل بما قبلها وبما بعدها ، وهذا الاختلاف نفسه يضع الناشئة فى اضطراب ، فيصلون ما حقه أن يكون منفصلا ، أو يفصلون ما حقه أن يكون متصلا .

ومما يوقع الناشئة فى حيرة أخرى ، ما نجده فى الحرفين : الطاء والظاء ، إذ لا يختلف شكلهما فى حالتى الانفصال والاتصال ، فى حين أن بقية الحروف التى تتصل بما بعدها لا بد من حذف أذيالها عند الاتصال ، بمعنى أن الحيرة ناشئة من حذف الذيل أو إبقائه .

ومن مشكلات الحروف العربية عند الناشئة ، أن بعضها مهمل ، دون نقط ، وهو الذى يقال له العاطل ، وبعضها معجم منقوط ، وهو الذى يقال له الحالى ، فضلا عما يسببه نقط حرف مهمل فى الكلمة من تصحيف يبعدها عن معناها ، وكذلك الأمر فى زوال النقط عن حرف معجم ، من مثل تصحيف الحاء جيما ، أو الجيم حاء .

ومن ناحية أخرى قسم السكاكينى الحروف إلى مجموعتين . مجموعة من ثمانية حروف وهى : الألف ، والواو ، والدال ، والذال ، والراء ، والزاى ، والطاء ، والظاء ، وهذه جميعاً ليس لها إلا شكل واحد لا يتغير ،

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ٣٧ — ٤٤ .

سواء وقعت ابتدائية أم متوسطة أم أخيرة ، وسواء أكانت متصلة أم منفصلة . فى حين أن بقية الحروف لاتستوى مع المجموعة الأولى على نفس القياس والسهولة ، ويمكن ردّ هذا الاختلاف فى المجموعة الثانية إلى أنها ترجع إلى شكلين : كبير بذيل ، نستعمله فى آخر الكلمة إيذاناً بانتهائها ، وصغير ، نستعمله فى أول الكلمة أو فى درجها ، والصغير مشتق من أول الكبير ، لايختلفان فى الغالب إلا بالذيل .

وقصد السكاكينى من كل ذلك إلى أن وجه الصعوبة آت من أذيال هذه الحروف، واختلاف بعضها عن بعض . وواضح هنا أنه دعا إلى أن تكون هذه الحروف مستوية فى أذيالها ، فلِمَ لاتكون هذه الأذيال واحدة فى شكلها ، لا يختلف ذيل فيها عن ذيل آخر ؟ أو لماذا لا تكون هذه الحروف بتراء دون أذيال ، فلا يختلف الحرف وهو فى آخر الكلمة عنه وهو فى أولها أو فى درجها[1] ؟

ومن الحق عنده أن تصحح الكلمات الشاذة فى املائها ، من مثل «لكن» و «ذلك» ، حيث تكتب الألف صغيرة فوق اللام فى «لكن» ، وفوق الذال فى «ذلك» ؛ ومثل «قاموا» حيث تزاد الألف بعد واو الجماعة ولا تلفظ ؛ ومثل لفظة «أنا» حيث تزاد الألف ، والصواب أن تكتب «أنَ» بالفتح ، ولا يجوز لفظ الألف فيها إلا فى الشعر عند الضرورة ، لإقامة الوزن والموسيقى[2] .

وقد عاصر السكاكينى حملات حول الحروف العربية ، وكان قد أبدى

(١) المرجع السابق ، ج ٢ : ١٤٣ — ١٤٦ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ : ١٥٧ .

رأيه فيها منذ زمن بعيد ، ولكن عند تجدد هذه الحملات عاد فأكد رأيه فيها مرة أخرى[1] . والحق أن أزمة الحروف العربية تمتد جذور بعثها إلى أواخر القرن الماضى[2] ، ثم تجددت حركة تيسير الكتابة العربية على فترات مختلفة خلال هذا القرن . وكان الحافز — فى الغالب — هو الرغبة فى تحسينها وضبطها وتجنيبها — عند الكتابة والقراءة — الخطأ واللحن . ولعل أكثرها تطرفاً ما دعا إليه عبد العزيز فهمى — فى جرأة وحماسة — فى مجمع اللغة العربية ، من اتخاذ الحروف اللاتينية وسيلة للكتابة العربية[3] . وقد خصص المجمع جائزة مالية كبيرة لأحسن اقتراح فى تيسير الكتابة ، ولم يفز أىّ المقترحات والردود — على كثرتها — بالجائزة ، لأنها لم تحقق التيسير المنشود . وكان قد أقرّ المجمع مبدأ إصلاح الحروف وتبسيط الكتابة ، شريطة ألا يخرج بها عن أصول أوضاعها العامة . كما أقرّ الاختصار فى صور الحروف ما أمكن ، والاقتصاد فى استعمال التشكيل ، لأن ذلك كله من شأنه أن يبقى الوضع على مألوفنا ، دون قطيعة أو مباعدة بين حاضرنا وتراث ماضينا ، كما أنه ينقص عدد الحروف فى صندوق الطباعة . على أن المجمع لم يغلق باب البحث فى أزمة

(١) كان أولا فى محاضرته «الحروف الهجائية» فى فبراير سنة ١٩٢١ ، ثم فى كتابه «الدليل الأول» سنة ١٩٣٤ ، وأخيراً إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٢) انظر مصادر قيمة فى هذا الموضوع عند : دكتور اسحق موسى الحسينى : أزمة الفكر العربى ، ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٣) أوضح رأيه فى كتابه «الحروف اللاتينية للكتابة العربية» ط . القاهرة ١٩٤٤ .

الحروف ، حتى يتسنّى الوصول إلى أهدى الطرق لتحقيق الغرض المنشود[1] .

وبنفس هذه الروح العلمية ، وبهذا النفَس الطويل فى تقصى المزايا والخصائص التى تمتعت بها الحروف العربية ، عارض فى شدة الحملات التى كانت تشنّ عليها . وطبيعى أن يكون السكاكينى على حماسة شديدة لهذه الحروف . ذلك لأنه سبر غورها ، وشقق أسرارها ، حتى استخرج لنا دقائق كنوزها ، مما يشهد على بذل جهود مثمرة نحوها ، وإسدال مسحة من التقديس عليها . وخلص أمرها لديه إلى أنها صنعت كلها بحكمة ، وبلغت حدّ الكمال . ومرّ بنا كيف وجد أن نعم الحروف الهجائية فى لغات الأرض جميعاً لايعلو من صعوبة ، بمعنى أن الحروف العربية لاتختص بالصعوبة دون غيرها ، ومع ذلك فإن صعوبتها ليست عسيرة على عقول الناشئة ، لاسيما إذا أخذت هذه الحروف بأصواتها لا بأسمائها ، وهى من شأنها إرهاف أذهانهم .

وهكذا مقت إلى حد بعيد دعوى تيسير هذه الحروف ، واقتباس الحروف اللاتينية بديلا عنها ، كما مقت من قبل تيسير النحو ، وإلغاء الإعراب ، ودعوى تقييد ألفاظ اللغة ، واستبدال العامية بالفصحى . فهو لم يكن من أنصار استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، ولم يكن من أنصار تيسير حروفنا ، ذلك لأنها لاتحتمل التيسير ، فقد بلغت

(١) يمكن تتبع مراحل هذا الموضوع ، وتطور دراسته فى مؤتمرات المجمع ومجالسه ولجانه بشىء من التفصيل فى مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٥ : ١٧٩ و ج ٦ : ١٨ ، ٨٥ ، ٢٤٣ و ج ٩ : ٢٨٣ — ٢٨٥ ؛ وفى كتاب «تيسير الكتابة العربية» ، نشر مجمع اللغة العربية ، القاهرة ١٩٤٦ .

الكمال . فى حين أن عيوب الحروف اللاتينية كثيرة ، فهى من جهة تزيد عن الحاجة ، ومن جهة أخرى تنقص عن الحاجة ، ومن جهة ثالثة تستخدم الحرف الواحد لأصوات مختلفة ، إلى غير ذلك من النقائص ، على النحو الذى فصّلناه فى غير هذا الموضع .

ومضى السكاكينى يرد على الأقوال التى كانت تحمل على الكتابة العربية وحروفها وإملائها ، وأخذ يفندها قولا قولا . فمن قائل إن التاء الواقعة طرفاً نوعان : مبسوطة مثلها فى الفاضلات ، ومربوطة مثلها فى القضاة ، فلماذا لا نقتصر على واحدة ؟ وكان رده ان الأصل فى التاء الواقعة طرفاً أن تكون مبسوطة ، ولكن هناك كلمات تتناوب على آخرها التاء والهاء ، فإذا تحرك آخرها كان تاء ، وإذا وقفنا عليه كان هاء ، فهو حرف يجمع بين التاء والهاء ، ورمزنا إليه بالهاء من فوقها نقطتا التاء ، وأسميناها التاء المربوطة ، وكان الأولى أن تسمى «تاء هاء» . وواضح من هذا أن التاء المبسوطة شىء ، والتاء المربوطة شىء آخر ، ولاتغنى إحداهما عن الأخرى . وعد من عيوب القراءة أن نقف على الهاء بالتاء على لغة الحيريين ، مثل ما صنع الحريرى فى مواطن كثيرة من مقاماته نحو : «فلما قضينا الصلاة ، وأزمعنا الانفلات» ، ولا يزال بيننا فى العالم العربى من يقول : «هذه لغة عربيت» .

ومن قائل إن الألف الواقعة طرفاً نوعان : ألف قائمة مثلها فى عصا ودعا ، وألف بشكل ياء مهملة مثلها فى فتى ورمى ، فلماذا لا نكتفى بواحدة منهما ؟ وكان رده انه إذا جعلت الألفان قائمتين لم يعرف كيف تقلبان أواواً أم يا ، ولم تعرف أى الكلمات تقبل الإمالة وأيها لا تقبلها ، فكتابة الألف فى بعض المفردات قائمة ، وفى بعضها الآخر ياء مهملة ، لم تكن عبثاً .

ويشتكى بعضهم من الهمزة ويتبرم بها ، لأنها تكتب على أربعة

أشكال . على الألف فى نحو « رَأْسَ » و « سَأَلَ » ، وعلى الواو فى نحو « سُؤْل » و « لُؤْم » ، وعلى الياء فى نحو « بئر » ، ووحدها متطرفة — دون كرسى — فى نحو « سماء » و « جُزْء » . ويقترح المشتكى الاكتفاء بشكل واحد ، وإهمال الباقى . لكن السكاكينى أرجع هذه الأشكال إلى طبيعة الهمزة فى اللغة العربية ، وبين كيف أن لها ثلاث حالات من الإثبات والتليين والحذف ، وكان من نتيجتها هذه الأشكال المختلفة لها . وأورد من الأمثلة المختلفة ، ما يستقرأ منها أن اللغة كانت تتدرج إلى إلغاء الهمز فى درج الكلام أو عرضه ، إما بالوصل ، وإما بالإبدال ، وإما بالحذف ، على نحو قريب مما هو واقع فى العامية ، ولو تم هذا لاندثر هذا الصوت من اللغة . وكأنه حاول التخفيف من شدة وطأة هذه الهمزة حين ذكر أن شكلها نفسه لا يتغير ، وأن القاعدة الغالبة فى حكمها أن تكتب بحسب تليينها ، بمعنى أنها إذا ليّنت بالواو كتبت على واو ، وإذا ليّنت بالألف كتبت عليها ، أو بالياء كتبت على ياء . وانتهى إلى أن همزتنا هذه لا نستطيع الخلاص منها ، ولا نستطيع تحميدها على قالب واحد .

ويفضّل بعضهم الحروفَ اللاتينية على العربية ، ذلك لأنها تفضلها فى الطباعة . ويعد السكاكينى هذا القول إهمالا تاماً لأهمية الكتابة العربية ، والقراءة ، والإملاء ، ومهمة تيسيرها جميعاً ، كما انه جنوح عن الهدف الأسمى ، واتجاه إلى تيسير الطباعة العربية فحسب . هذا فضلا عن أن الطباعة ذاتها ، بترتيب حروفها وفنيتها ، فى تقدم مستمر ، مما يمكن أن يذلل أمامها هذه العقبات ، فى مستقبل الأيام [1] .

ولعلنا نذكر أن الحروف اللاتينية ذاتها بحاجة إلى إصلاح ، فقد قامت

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٣٢٤ — ٣٣١ .

فى انكلترا نفسها حركة قوية تهدف إلى إصلاح الحروف ، وجعل صورها أقرب إلى تمثيل الأصوات مما هى عليه الآن ، ذلك لأن حروفهم لا تدل على نطقها بدون لبس أو غموض . وكان من أكبر دعاة إصلاح الحروف الإنكليزية الكاتب الإنكليزى الشهير « برنارد شو » ، الذى رغب فى وقف أمواله كلها فى سبيل إصلاحها وإضافة ما ينقصها من حروف جديدة . ومن الطريف أن « شو » كان يسخر من كتابة كلمة (though) بستة حروف ، بدل أن تكون بحرفين . ويشيد بالحروف الروسية الخمسة والثلاثين التى تستطيع كتابة اسمه بحرفين ، فى حين أن اللغة الإنكليزية تكتبه فى أربعة (Shaw) . وبلغ من إعطائه الأمر قيمة عالية أن ربط بين رقى الحروف الروسية وبين استحالة منافسة انكلترا لروسيا من الناحية الاقتصادية [1] .

ومن العجب أن يقترح استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، فى حين أن بعض الأصوات العربية تختلف فى روحها عن روح الحروف اللاتينية وأصواتها . ذلك أن فى العربية مهارات عضلية وأصواتاً كثيرة لا مثيل لها فى اللغات الأوربية التى تفتقد حروفها اللاتينية رموزاً لهذه الأصوات ، وبالتالى تعجز عن تأديتها أداء تاماً . ومن هذه الحروف الحاء ، والخاء ، والقاف ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والعين ، والغين . ومن أجل ذلك حاول المستشرقون وضع رموز لهذه الأصوات العربية المفقودة فى لغاتهم ، كأن يضعوا فوق حرف K نقطة هكذا Ḳ لتدل على أنه قاف عربية لا كاف ؛ ونقطة تحت حرف H لتشير إلى أنه حاء عربية وليس هاء .

وتخالف العربية جميع اللغات التى تكتب بالحرف اللاتينى ، من جهة الحركات الطويلة والقصيرة . فى هذه اللغات لا تميز الحروف اللاتينية بين

(١) دكتور إسحق موسى الحسينى : أزمة الفكر العربى ، ص ٨٩ — ٩٠ .

الصوت الطويل والصوت القصير ، فى حين أن لطول الحركات وقصرها دلالة لغوية فى اللغة العربية ، فالفرق واضح بين (قَتَلَ) و (قاتَلَ) ، أو (كَتَبَ) و (كاتَبَ) ، وغيرهما . وأثبتت العربية الحركات الطويلة فى صلب الكلمة وأثبتت حروفاً ، ورسمت الحركات القصيرة خارج بنية الكلمة ، وظلت فضلة يمكن إهمال رسمها . وإثبات هذه الحركات بنوعيها فى صلب الكلمة العربية بالحروف اللاتينية ، يخفى على القارئ صلة الكلمات بعضها ببعض ، ويضيع عليه تبيّن اشتقاق اللفظ وتصريفه ، وحينئذ تعمى عليه اللغة ، ويضل عنها فى متاهات مظلمة . فضلا عن أن الكتابة بالحروف اللاتينية ستوقع الكتاب فى تصوير الكلمة على صور مختلفة ، فيها خطأ وخروج عن القواعد اللغوية .

ويبدو أن مقترح الكتابة العربية بالحروف اللاتينية نسى تراث العرب الأدبى والعلمى المكتوب خلال ألف وأربع مئة سنة . ونحن هنا بين أمرين ، إما أن نقطع صلتنا به ، أو نتعلم من أجله الفصحى ، بجانب تعلمنا العربية المعاصرة بالحرف اللاتينى .

ولعل من أجمل التشبيهات فى هذا المجال ، أن مثلنا حين نستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، كمثل من يتخلى عن بيته الذى سكنه ولاءمه إلى بيت آخر جديد ليس أكثر ملاءمة . وربما كان الأولى أن نصلح البيت القديم بدل هجره ، فالأولى أن نصلح الحروف العربية نفسها [1] .

وكنا يتمنا كيف أن السكاكينى — رغم اعتزازه بالحروف العربية عن علم بها وبمقابلتها بغيرها — لم يتنكر بعض نقائص لحقت بها ، مما تشكل الأمر على طلابها من المبتدئين . لكن كل هذا يهون حينما نعلم أن الحروف

(١) المرجع السابق ، ص ٩٤ — ٩٩ .

اللاتينية إذا فضلت الحروف العربية فى شىء ، فإن الحروف العربية تفضلها فى أشياء لا يستهان بها . وينبغى ألا نخلط بين نقائص الحروف العربية وإمكانية إصلاحها ، وبين استبدال غيرها بها .

والسكاكينى مرب مارس التعليم والتفتيش سنين طويلة ، وعنى بالمدرسة والطلاب ، ووضع المؤلفات للناشئة فى القراءة وتعلم الأبجدية العربية ؛ فلبيبى أن ينتهى إلى أن صعوبة تعلم حروفنا يرجع — فى غالبه — إلى سوء أسلوب التعليم ، لا إلى تشاكل الحروف نفسها . الأمر الذى دعاه إلى أن يقترح على مجمع اللغة العربية الدعوة إلى درس أساليب التعليم لاختيار الأحسن منها ، دون المساس بالحروف ، ذلك لأن أساليبنا هى التى تحتاج إلى تيسير ، لا الحروف ذاتها [1] .

والحق انه كان يعتمد على الأذن فى أكثر بحوثه الصوتية ، لذا فهى تخلو — بطبيعة الحال — من تحليل تشريحى ، واستعمال لأجهزة الأصوات الحديثة فى المعامل ، التى استخدمها علم الأصوات الحديث (Phonetics) فى عهد غير بعيد . لكننا نظلم السكاكينى لو نشدنا فيه نتائج أكثر نضجاً فى علم الأصوات العربية ، فى مثل هذا الوقت المبكر . ذلك لأن هذا العلم ما زال يحبو فى أول الطريق ، ولم يقطع دور طفولته بعد . فضلا عن أنه فى الغرب ذاته — وقد سبقنا فى هذا المضمار — لم يتم نضجه . ولم تعط الأصوات العربية فى اللغة حتى اليوم حقها الكامل من البحث ، وما تزال فى حاجة إلى مزيد من الدرس ، الذى يستأنس بأحدث ما أنتجه الغرب من الأجهزة والوسائل العلمية والنظريات . على أن تتوج هذه الدراسات بوضع معجم (أطلس) لغوى شامل بشأنها ، فتفيد منه العلوم اللغوية فى مختلف مجالاتها .

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ج ٢ : ٣٣١ ؛ ويوميات خليل السكاكينى ، ص ٣٧٠ .

خاتمـــة

حاولنا فيما مضى أن نلمّ الخيوط الثقافية التى تكوّن منها نسيج السكاكينى فى اللغة . ورأينا كيف تهيأ له مزيج واسع من الثقافة العربية الأصيلة ، والثقافة العربية الحديثة ، مع حسّ لغوى مرهف . وكيف آمن بفلسفة تبتغيه فى القوة والحياة ، فأراد للغة العربية الحياة والقوة . كما تأثر بنظرية داروِن فى « النشوء والارتقاء وتنازع البقاء » ، فصدر فى كثير من آرائه اللغوية وأبحاثه عن لحوى هذه النظرية ، ومفهومها العام ، حتى صح ماقيل ان بحوثه اللغوية فى جملتها كانت ثمرة من ثمراتها[1] .

وقد عرضنا فى الفصول السابقة جملة آرائه فى اللغة عامة ، وفى النحو والصرف ، وفى الأصوات والحروف والكتابة ، وهى فى بعضها تبدو اليوم شيئاً مقرراً ، لكنها لا تلبث أن تسترد قيمتها الأولى عند النظر إلى الزمن الذى نادى بها فيه ، وأذاعها على الناس .

وأكثر ما كان يمـــيزه فى أبحاثه السعة والشمول ، وتلك النظريات الفلسفية الجديدة فى علم اللغات . كما كان مبتكِراً ، وصاحب اجتهاد واسع ، داعياً إلى إطلاق القياس وإشاعته إلى مدى بعيد ، مسلطاً على كل مناقشاته أضواء نظريات علم الدراسات اللغوية الحديثة .

---

(١) دكتور عبد الرحمن عبد الوهاب ياغى : حياة الأدب الفلسطينى الحديث حتى النكبة ، ص ٢٨٣ ؛ وانظر أيضاً ص ٤٢٣ .

ومن المدهش حقاً أن يكون السكاكينى متطرفاً فى آرائه اللغوية ، خارجاً عن المألوف ، نزاعاً إلى التجديد ، بل من دعاته ، فى حين أنه حافظ على جوهر اللغة وأصولها العامة . ولم يدعُ كالمتطرفين الآخرين إلى تقييد ألفاظ اللغة بمئتين أو ثلاث مئة لفظ ، ولا إلى إلغاء الإعراب والنحو وضوابط الكلمات ، واللجوء إلى الوقف والتسكين ، ولا إلى استبدال العامية بالفصحى ، ولا إلى استبدال الخط اللاتينى بالخط العربى . لكنه حين تصدى للمشكلات اللغوية وقضاياها القائمة فى اللغة العربية ، والتى شارك فيها بقسط وافر وبعناية جادة ، كان يصف لها الحلول المتزنة دون مساس بالجوهر . وهى مسائل مازالت بصدد البحث فى مختلف الأندية والمجامع اللغوية فى العواصم العربية .

ورأينا كيف أنه كان عالماً لغوياً رائداً ، وكيف كان من الرعيل المجاهد فى خدمة اللغـــة العربية . وقد شكلت آراؤه فيها حلقة مهمة فى سلسلة الدراسات اللغوية العربية الحديثة ، ليس فى وطنه الصغير فحسب ، وإنما فى أرجاء الوطن العربى بأسره .

وستبقى أبحاثه محتفظة بقيمتها وأصالتها ، حتى يأتى الوقت الذى يرغب فيه حقاً فى إصلاح مجد ، وحينئذٍ نستلهم روحه ، ونستضىء بنور عقله ، ونجد أنفسنا تلاميذه من جديد[1] .

إن السكاكينى كنز دفين ، كلما بدت لنا منه موهبة ، خفيت عنا فيه مواهب كثيرة .

---

(١) دكتور أنيس فريحة : ذكرى السكاكينى ، ص ٣٨ ومابعدها .

الفهـــارس

١ — ثبت المراجع .

٢ — فهرس الأعلام .

٣ — فهرس الموضوعات .

١ ـ ثبت المراجع

(أ) المراجع العربية :

١ ـ أحمد ، محمد خلف الله : معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها ، ط . القاهرة (دار إحياء الكتب العربية = عيسى البابى الحلبى) ، ١٩٦١ .

٢ ـ حسن ، عباس : اللغة والنحو بين القديم والحديث ، القاهرة (ط . دار المعارف بمصر) ، ١٩٦٦ .

٣ ـ الحبيبى ، (دكتور) اسحق موسى : أ ـ أزمة الفكر العربى ، بيروت (دار بيروت للطباعة والنشر) ، ١٩٥٤ .
ب ـ المدخل إلى الأدب العربى المعاصر ، ط القاهرة (معهد الدراسات العربية العالية) ، ١٩٦٣ .

٤ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ط . المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، (بلا تاريخ) .

٥ ـ داغر ، يوسف أسعد : مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت ـ مطابع لبنان ، ١٩٥٦ . [الجزء الثانى (القسم الأول) ـ ترجمة خليل السكاكينى] .

٦ ـ ذكرى السكاكينى (مجموعة مقالات) : ط . القدس (المطبعة العصرية) ، ١٩٥٧ .

٧ ـ الزركلى ، خير الدين : الأعلام ، القاهرة ، الط . الثانية (١٩٥٤ ـ ١٩٥٩) = (١٣٧٣ ـ ١٣٧٨ هـ) . [الجزء الثانى والعاشر ـ ترجمة خليل السكاكينى] .

٨ ـ السامرائى ، إبراهيم : التطور اللغوى التاريخى ، ط . القاهرة (معهد البحوث والدراسات العربية) ، ١٩٦٦ .

٩ ـ السكاكينى ، خليل : أ ـ كذا أنا يا دنيا = [يوميات خليل السكاكينى] ، نشر هالة السكاكينى ، القدس (المطبعة التجارية) ، ١٩٥٥ .
ب ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكينى ، ط . القدس (المطبعة العصرية) ، ١٩٦٢ ، جزءان :
الأول فى (الأدبيات) ، ويضم من كتبه :
(١) ماكتبتُ ، جزءان ، ص٥ ـ ١٨٠ .
(٢) لذكراك ص١٨١ ـ ٢١٤ .
(٣) سَرِيّ ص٢١٥ ـ ٣٤٠ .
(٤) فلسطين بعد الحرب الكبرى ص٣٤١ ـ ٣٨٣ .
والثانى فى (اللغويات) ، ويضم من كتبه :
(١) مطالعات فى اللغة والأدب ص٣ ـ ٢٧ .
(٢) الأصول فى تعليم اللغة العربية (الدليل الأول والثانى) ص١٣٨ ـ ٢٤٦ .
(٣) حاشية على تقرير لجنة النظر فى تيسير قواعد الصرف والنحو والبلاغة ص٢٤٧ ـ ٢٧٠ .
(٤) وعليه قِس ص٢٧١ ـ ٣٢٢ .
(٥) حروف العربية ص٣٢٣ ـ ٣٣١ .

١٠ ـ القلقشندى ، أبو العباس أحمد : صبح الأعشى ، ط القاهرة (دار الكتب الخديوية ـ المطبعة الأميرية) ، ١٩١٣ = (١٣٣١ هـ) .

١١ ـ الكتاب العربى الفلسطينى : نشر لجنة الثقافة العربية فى فلسطين ، ط . القدس (مطبعة اللواء التجارية) ، ١٩٤٦ .

١٢ ـ كحالة ، عمر رضا : معجم المؤلفين ، دمشق (مطبعة الترقى) ، ١٩٥٧ = (١٣٧٧هـ) . [الجزء الرابع ـ ترجمة خليل السكاكينى] .

١٣ ـ مجلة ، المجلة ، : القاهرة ، العدد ١١٤ ـ يونيو (حزيران) ، ١٩٦٦ .

١٤ ـ مجلة مجمع اللغة العربية : ط . القاهرة (١٩٤٨ ـ ١٩٥٨) . [الجزء الخامس ـ العاشر] .

١٥ ـ يافى ، (دكتور) عبد الرحمن عبد الوهاب : حياة الأدب الفلسطينى الحديث حتى النكبة ، رسالة دكتوراه ـ إلى كلية الآداب (جامعة القاهرة) . [ط . آلة كاتبة] ، (بلا تاريخ) .

(ب) المراجع الأجنبية :

1 — The Encyclopedia Americana : Printed in the U.S.A., 1961 Edition. [V.29 — Article : Whitney, William Dwight] .

٤ - فهرس الأعلام

(أ)

أحمد ، محمد خلف الله ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١٥ ، ٥٦ ، ٦٠ .
ابن أحمد ، الخليل ٥٣ ، ٦٨ ، ٦٩ .
الأخفش ٥١ .
ارسلان ، شكيب ١١ .
ارفنكشاد ٢٩ .
الاخفول ٥١ .
افلاطون ٥٦ .

(ب)

البارودي ، محمود سامي ٥٦ .
بشر ، (دكتور) كمال ٣٨ .

(ج)

ابن جني ، أبو الفتح عثمان ٣٥ ، ٨٣ .
الجوزي (المقدسي) ، يحيى ٢٠ .

(ح)

الحريري ٢٧ ، ٨٩ .
حسن ، عباس ٦٢ .
حسين ، (دكتور) طه ١٢ ، ١٩ .
الحسيني ، (دكتور) اسحق موسى ٦ ، ٩ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ٥٣ ، ٨٧ ، ٩١ .

(خ)

الخالدي (المقدسي) ، روحي ٢٠ ، ٤٠ .
ابن خالويه ٥٣ .
ابن خلدون ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٣ .

(د)

دارون ، تشارلز ١٨ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٩٥ .
دافر ، يوسف أسعد ١٧ .

(ذ)

ذو الرمة ٥٦ .

(ر)

الريحاني ، أمين ١٩ .

(ز)

الزركلي ، خير الدين ١٧ .
زريق ، نخلة ١٧ ، ٢٠ .
زيدان ، جورجي ٢٠ .

(س)

السامرائي ، ابراهيم ٢٨ .
سيبويه ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٣ .

(ش)

الشدياق ، أحمد فارس ١٨ ، ٢٠ .
شكسبير ٥٦ .
شليخر ٢٨ .
شميل ، (دكتور) شبلي ١٨ .
شو ، برنارد ٩١ .

(ص)

الصبان ٥١ .

(ض)

ضومط (اللبناني) ، جبر ٢٠ .
ضيف ، (دكتور) شوقي ٦٢ .

(ط)

الطهطاوي ، رفاعة رافع ٥٩ .

(ع)

عبد الرازق ، مصطفى ١٢ ، ١٩ ، ٢٢ .
أبو عبيدة (النحوي) ٨٢ .
أبو العتاهية ٢٧ .
العدواني ، يحيى بن يعمر ٧٧ .
عزى ، محمود ١٩ .
العقاد ، عباس محمود ١٩ .

(ف)

ابن فارس ٨١ .
الفراء ٣٠ ، ٥٣ .
الفرزدق ٥٦ .
فريحة ، (دكتور) أنيس ٦٣ ، ٩٦ .
فهمي ، عبد العزيز ٨٧ .
فهمي ، (دكتور) منصور ١٢ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٠ .

(ق)

القرطبي ، ابن مضاء ٦٢ ، ٦٣ .
القلقشندي ، أبو العباس أحمد ٣٠ .

(ك)

كحالة ، عمر رضا ١٧ .
الكرملي ، انستاس ٢٠ .
الكسائي ٥٣ .
كيسان ٨٢ .

(ل)

اللبتي ، نصر بن عاصم ٧٧ .
ليل ٢٨ .

(م)

ابن مالك ٥١ .
المفضل ٥٦ .
المتنبي ، أبو الطيب ١٨ ، ٢٩ .
متوشالخ ٢٩ .
المرصفي ، حسين ٥٦ .
ابن مروان ، عبد الملك ٧٧ .
موسى ، سلامه ١٢ ، ١٩ .

(ن)

النشاشيبي ، اسعاف ١١ .
نيلته ١٨ ، ٢٩ ، ٩٥ .

(هـ)

هيكل ، (دكتور) محمد حسين ١٢ .

(و)

Whitney, Willism Dwight ٢٧

(ى)

اليازجي ، ابراهيم ٢٠ ، ٢٦ .
يافي ، (دكتور) عبد الرحمن عبد الوهاب ٤٠ ، ٦٨ ، ٩٥ .

٣ - فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تصدير للاستاذ محمد خلف الله أحمد	٥ — ٧
تقديم للدكتور إسحق موسى الحسيني	٩ — ١٣
* * *	
مقدمة	١٥
١ — تمهيد	١٧ — ٢٣
٢ — في اللغة	٢٥ — ٣٥
٣ — في النحو والصرف	٣٧ — ٦٣
٤ — في الأصوات والحروف والكتابة	٦٥ — ٩٣
٥ — خاتمة	٩٥ — ٩٦
الفهارس :	٩٧
١ — ثبت المراجع	٩٩ — ١٠١
٢ — فهرس الأعلام	١٠٣ — ١٠٤
٣ — فهرس الموضوعات	١٠٥

استدراكات

وقعت — أثناء الطبع — أخطاء ، نشير إلى أهمها :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢١	٢٠	تجدها	تجدها
٢٩	١٧	المنائر	المنائر
٣٠	٢٢	الفلقشندى	القلقشندى
٤١	٢٢	فى ،	، فى
٥٨	١	التابعة	التابعة
٥٩	١٩	ثنى	اثنى
٦٣	١١	٢٨	٣٨
٦٧	٩	النار ،	النار :
٦٨	١	لص فلما	لص . فلما
٨٢	١	غربية	عربية
٨٨	١٩	المجمغ	المجمع
٨٩	١٤	الحيريين	الحميريين
٨٩	٢١	يا	يا

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

73

خليل السكاكيني
اللغوي

معهد البحوث والدراسات العربية

رسائل وبحوث

خليل السكاكيني اللغوي

بقلم

عصام محمد الشنطي

[قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٦٧

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية